اقرأ

الدكتور ابراهيم أحمد العدوي

ابن بطوطة

في العالم الإسلامي

دار المعارف بمصر

الدكتور ابراهيم أحمد العدوى

ابن بطّوطة
في العالم الإسلامي

اقرأ ١٤٤
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٤ — ديسمبر سنة ١٩٥٤



١
جواب الآفاق

فى مدينة فاس ، ببلاد المغرب الأقصى ، ألقى شيخ فى الخمسين من عمره ، عصا التسيار عام ٧٥٤ هـ(١٣٥٣م) عائداً من بلاد الشرق الأقصى . وأخذ يقص من أخبار هذه البلاد النائية ما أثار دهشة السامعين من معاصريه وضجتهم حول تصديقها أو تكذيبها . فأخذ الناس يتجادلون فيما بينهم عما رواه الشيخ العجوز من مشاهدات ، لا فرق فى ذلك بين متعلم وجاهل فذكر ابن خلدون وهو من معاصريه : « ورد على المغرب لعهد السلطان أبى عنان . . . رجل يعرف بابن بطوطة ، كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل دهلى حاضرة ملك الهند . . . وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بممالك الأرض . . . فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه. ولقيت أنا يومئذ فى بعض الأيام وزير السلطان . . . ففاوضته فى هذا الشأن ، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض الناس فى تكذيبه .

« فقال الوزير . . . إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول ، بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن . وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ، فمكث فى السجن سنين ربى فيها ابنه فى ذلك المحبس . فلما أدرك وعقل ، سأل عن اللحمان التى كان يتغذى بها ، فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم ، يقول وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ، فيقول : يا أبت تراها مثل الفأر ؟ فينكر عليه ويقول ، أين الغنم من الفأر ؟ ! وكذا فى لحم البقر والإبل ، إذ لم يعاين فى محبسه إلا الفأر ، فيحسبها كلها أبناء جنس للفأر . »

لكن سلطان فاس نفسه كان ممن أعجب بأحاديث ذلك الشيخ ، وأمر أحد كتابه أن يدون ما يمليه ذلك الرحالة المحنك : « وما شاهده فى رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، وذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار . . ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدرها . »

ولم يكن هذا الشيخ الذى عرف بابن بطوطة نكرة رفعته المقادير إلى مصاف الرحالة والرواد الكبار ، وإنما هو سليل محتد أصيل ، وعنصر كريم ، تحلى بصفات هيأت له السمو والرفعة ، وترك أثراً خالداً لا يبلى ، إذ ولد هذا الرحالة من أبوين كريمين فى مدينة طنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤ م) ،

وشب بين أحضان أسرة عريقة فى الاشتغال بالعلوم الشرعية الإسلامية ، وتولى مناصب القضاء بين الناس . فتربى محمد ابن بطوطة وترعرع فى مهد دينى ، وسار على نهج أسرته ، حيث درس العلوم الدينية وتفقه فيها ، كما تعلم الأدب وفنون الشعر . وقد صقلته هذه التربية ، وجعلت منه رجلا تقياً ورعاً محباً للعلماء والأولياء ، وخير مثال لما تمتع به أبناء الأسر الدينية العليا فى المجتمع الإسلامى من طموح ومقدرة على تحمل المشاق والارتحال فى طلب العلم والعرفان .

تفتحت مواهب محمد بن بطوطة حين شب عن طوق الفتيان ، وغدا شاباً رشيداً فى الثانية والعشرين من عمره . إذ آثر مغادرة بلاده ، والذهاب إلى بيت الله الحرام ، لأداء الفريضة ومشاهدة قبر الرسول الكريم . وجاء هذا العزم على الحج حدثاً هاماً فى حياة ابن بطوطة ، دفعه إلى أن ينفض عنه ثياب الدعة والاستقرار ، ويرتدى ثوب الارتحال والتجوال ، مخلداً اسمه فى ميدان الرحلات التى قام بها قبله كثير من المسلمين ، إذ دأب نفر من المسلمين منذ القرن الثالث الهجرى على ارتياد بلاد الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف ، من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن آسية الوسطى وجبال القوقاز شمالا إلى صحارى إفريقيا جنوباً .

وبدأت رحلات أولئك المسلمين الأول متخذة صبغة رسمية ، قام بها مبعوثون وسفراء من قبل السلطات المركزية الإسلامية ببغداد ، لوصف الطرق والممالك التى تربط العاصمة بالبلاد التابعة لها ، ولدراسة الأحوال التى تعين أولى الأمر على إدارة هذه الإمبراطورية ، وتطبيق أحكام الشريعة فيها . على أن هذه الرحلات لم تلبث أن احتضنت طائفة الحجاج المسلمين إلى بلاد الحجاز بصفة خاصة .

فكان الحج من أغنى الينابيع التى زودت المسلمين بالمعلومات ، إذ صاحب عودة الحجاج إلى بلادهم سرد كثير من القصص والأخبار التى سمعوها فى طريقهم ، ووصف المشاهدات التى رأوها فى سبيلهم . ودون بعض الحجاج الواسعى الثقافة مشاهداتهم بعد عودتهم ، لينتفع بتجاربهم سائر المسلمين ، ولتساعدهم على أداء مناسكهم . ومن ثم زخرت كتبهم بأحوال سكان البلاد الإسلامية ، وطبيعة مزاجهم ، وأسس اقتصادياتهم ، وينابيع ثروتهم ورخائهم .

وقف ابن بطوطة على أخبار أولئك الرحالة السابقين ، فأثارت عنده ملكة مشاهدة أقاصى البلاد ، مع البدء بحج بيت الله الحرام . على أنه تفوق عليهم وتمتع بمركز الصدارة بينهم بفضل ثقافته الدينية الواسعة . إذ هيأ له تفقهه فى شئون

الدين الإفادة مما كان بالعالم الإسلامى من مزايا تشجع الرحلات وتساعد على القيام بها . فكانت طبيعة العالم الإسلامى على عهده تتسم بالبساطة فى العيش ، وشدة التقوى والصلاح ، وما يصاحبهما من مظاهر تكفل للمسافر الطمأنينة فى ظلها والتمتع بمميزاتها . فكان المسلمون فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية يرحبون بإخوانهم الذاهبين إلى الأراضى المقدسة ، ويقفون الأوقاف للإنفاق على الغرباء من المسافرين المسلمين .

ولذا كانت الطرق بين البلاد الإسلامية آهلة بالركبان ، إلى جانب قوافل التجار التى انتشرت بين هذه الأقطار حاملة منتجاتها وخيراتها ، ووصلت بها إلى الهند والصين . فسافر ابن بطوطة إلى حيثما شاء مندمجاً فى ركب تجارى أو مع قافلة حجاج ، متجنباً بذلك أن يضل السبيل . على حين فتح له تدينه وعلمه الغزير قلوب الناس أينما نزل ، ودور ضيافة الحكام الأمصار والمدن . فنعم ابن بطوطة بالتمتع بثمار الأخوة التى سادت بلاد العالم الإسلامى ، برغم ما فقدته على عهده من الوحدة السياسية ، حيث دلت روابط الدين واللغة والثقافة على أنها من أقوى العوامل القادرة على إبقاء التضامن بين البلاد الإسلامية ، أما القوميات الإقليمية فقد تضاءلت أمامها .

وهكذا تابع ابن بطوطة رحلاته ، حاملا بين جوانحه

شخصية خفيفة الظل حلوة الشمائل إذا ما حل بقوم ؛ وقوية البأس شديدة السطوة إذا ما واجه مصاعب فى الطريق . ثم عاد إلى وطنه بأرض المغرب الأقصى حاملا صورة فريدة عن الحالة الاجتماعية فى بلاد العالم الإسلامى على عصره . إذ خلت مشاهداته من الإطناب الجاف فى ذكر جغرافية البلاد التى اجتازها ، ووصف جبالها وأنهارها ، وإنما جاءت صورة اجتماعية تنبض بالحياة عن أحوال المسلمين ، ولا سيما الأشخاص الذين التقى بهم أو تعامل معهم . ونال بذلك ابن بطوطة قصب السبق على سائر الرحالة المسلمين ، وضرب أحسن مثل عملى على ما ساد روح المسلمين فى عصره من حب للمغامرة ، واعتزاز باتساع إمبراطوريتهم ؛ على نحو ما افتخر به شاعر إسلامى من الرواد :

ومن كان من الأحرا	ر يسلو سلوة الحـــر
ولا سيما فى الغـــربة	أودى أكثر العمـــر
وشاهدت أعاجيبـــا	وألواناً من الدهـــر
فطابت بالنوى نفسى	على الإمساك والفطـــر
على أنى من القوم الـ	بها لـــيل بنى الغـــر
فنحن الناس كل النا	س فى البر وفى البحر

أخذنا جزية الخلق   من الصين إلى مصر
إلى طنجة ، بل فى كـ   ـل أرض خيلنا تسرى
إذا ضاق بنا قطر   نزل عنه إلى قطر

٢
بداية المطاف

خرج ابن بطوطة من طنجة يوم الخميس الثانى من شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٦ م) قاصداً حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول الكريم . وكان والداه إذ ذاك على قيد الحياة ، فبكى لفراقهما ، لأنه كان رجلا رقيق الشعور مرهف الإحساس . وسافر منفرداً دون أن يصحبه أحد فى الطريق ، أو يجد ركباً يندمج فيه . ولكن حين بلغ مدينة تلمسان وجد بها رسولا يدعى أبا عبد الله الزبيدى ، متجهاً إلى مدينة تونس . فرافقه فى الطريق ، بعد أن اشترى من هذه المدينة بعض المؤن والحاجات .

ولما بلغ الركب مدينة بجاية ، أصيب ابن بطوطة بالحمى . فأشار عليه أبو عبد الله الزبيدى أن يقيم بهذه المدينة حتى يشفى مما ألم به . لكن ابن بطوطة أبى ، وصمم على مواصلة الرحلة ، مفضلا أن يلقى ربه وهو فى طريقه لأداء فريضة الحج . فنصحه أبو عبد الله الزبيدى عندئذ بأن يبيع

دابته ، وما معه من متاع ، على أن يُعيره دابة من عنده وما قد يحتاج إليه من أشياء ، ليصبح سيره خفيفاً ، غير قلق على متاع أو زاد . وقد اشتدت وطأة الحمى على ابن بطوطة فى أثناء مواصلة الركب السير ، فكان يشد نفسه بعمامته فوق السرج ، حتى لا يسقط من الضعف ، وظل على ذلك حتى وصل الركب إلى أطراف مدينة تونس ، حيث شفى من المرض .

وشاهد ابن بطوطة الناس خارج مدينة تونس لاستقبال أبى عبد الله الزبيدى ومن معه . ولما أهل الركب عليهم ، أقبلوا بالتحية على الزبيدى ، وكذلك على سائر أفراد الركب ، دون أن يحيي أحداً منهم ابن بطوطة ، إذ كان غريباً عن أهل المدينة ، ولا يعرفه أحد بها . فهاج ذلك من نفسه الشجن ، وأحس لأول مرة بآلام الفرقة ، وأجهش بالبكاء . على أن أحد أفراد الركب شعر بحال ابن بطوطة ، وأقبل عليه بالسلام ، وأخذ يؤانسه بالحديث حتى دخل الناس مدينة تونس .

أقام ابن بطوطة بهذه المدينة حتى تم إعداد ركب الحجاج القاصدين إلى الحجاز . ولما انتظم عقد الركب ، نصّب الحجاج ابن بطوطة قاضياً عليهم لعلمه وورعه ، وتفقهه فى الدين . فزالت عنه الوحشة ، وأحس للمرة الأولى أيضاً بأخوة الروح الإسلامية . وقد تزوج فى طرابلس حين نزل الركب بها ،

ولكن لم يلبث أن طلق زوجته لشجار وقع بينه وبين صهره ، وتزوج من امرأة أخرى ، وأعد للركب بمناسبة الزواج وليمة ، قضوا فيها يوماً كاملا فى مرح وسرور ، ثم ودع زوجته ، وسار مع الركب متابعاً رحلته إلى الحجاز .

من وحى النيل :

وفى أول جمادى الأولى وصل الركب إلى مدينة الإسكندرية ، التى أعجب بها ابن بطوطة أيما إعجاب . ولكن كان نزوله أرض مصر فاتحة عهد جديد فى تاريخ حياته ، أفاض عليه النيل فيها من نفحاته ما رفعه إلى مصاف الخالدين . إذ قابل ابن بطوطة فى الإسكندرية عالماً يدعى برهان الدين ، نزل فى ضيافته ثلاثة أيام . وكان لهذا العالم أثر كبير فى خلق ابن بطوطة خلقاً آخر ، إذ استشف من أحاديثه معه أنه أمام شخص محب للتجوال ، وأن روحه تحب المغامرة وارتياد الآفاق . فقال لابن بطرطة : أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد ، فأجابه بالإيجاب . وهنا قال له : لا بد لك إن شاء الله من زيارة الهند ، ومقابلة أخى فريد الدين بها ، وكذلك النزول بأرض الصين ، والالتقاء بأخى برهان الدين هناك ، فإذا بلغت هذه البلاد ، فأقرئ إخوتى بها السلام . ولم يكن

ابن بطوطة قد حدثته نفسه بعد بالتوغل فى مثل هذه البلاد القاصية ، فجاء حديث العالم المصرى حافزاً أثار عنده غريزه حب الأسفار ، وجعل نفسه تتوق لمشاهدة هذه البلاد ، التى يقيم بها إخوة ذلك الفقيه العظيم .

* * *

وكانت فترة إقامة ابن بطوطة بمصر مرحلة مباركة فى حياته ، نمت فيها عنده ملكة الارتحال وزيارة أقاصى البلاد ، إذ دفعه حرصه على مقابلة العلماء والأولياء إلى زيارة كل من ترامى اليه شىء من أخبارهم . فسمع وهو بالإسكندرية عن الشيخ الصالح أبى عبد الله المرشدى ، وأنه من كبار الأولياء ، ومنقطع للعبادة بمنية بنى مرشد قبالة فوة ، فى زاوية منفردة لا يخدمه فيها أحد . فرحل لزيارة هذا الولى وقابله فى زاويته ، حيث لقى منه الكرم والعطف . وقضى ابن بطوطة ليلة عند أبى عبد الله المرشدى ، ورأى حلماً عجيباً فى هذه الليلة ، قصه على الولى فى صباح اليوم التالى . ففسر له أبو عبد الله المرشدى الرؤيا ، قائلا له : سوف تحج وتزور قبر النبى ، ثم تجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة . ففارق ابن بطوطة منية بنى مرشد وهو شديد الإيمان بطواف البلاد التى سمعها من قبل من العالم برهان الدين ،

ثم من نبوءات الولى أبى عبد الله المرشدى .

* * *

وانتهز ابن بطوطة وجوده فى أرض مصر وعول على زيارة أمهات مدنها ، ومشاهدة أحوالها . فذهب إلى دمياط وأعجب بنظامها ، إذ لم يكن يسمح لأحد بالخروج منها إلا بتصريح من الوالى ، فمن كان ذا منزلة رفيعة فى المدينة منح جوازاً يبيح له الخروج ، على حين توضع علامة على ذراع عامة الناس بمثابة تصريح لهم بمغادرة المدينة إذا شاءوا ، وشاهد بهذه المدينة كذلك الطائفة المعروفة بالقرندرية التى يحلق مريدوها لحاهم وحواجبهم . وذكر ابن بطوطة أن السبب فى ذلك يرجع إلى محاكاة رئيسهم الشيخ جمال الدين الساوى مؤسس هذه الطائفة ؛ إذ يروى أنه كان جميل الصورة حسن الوجه ، فعلقت به امرأة أخذت تراسله وتعارضه فى الطريق ، وهو يمتنع عنها . فلما أعياها أمره دست له عجوزاً تصدت له بالقرب من أحد المنازل الواقعة على طريق المسجد ، وبيدها كتاب . فلما مرّ بها ، قالت له : يا سيدى ؛ أتحسن القراءة ؟ قال نعم ، قالت له هذا الكتاب بعثه إلى ولدى ، وأحب أن تقرأه على . جافأبها إلى طلبها ، ولما فتح الكتاب قالت له : يا سيدى ،

إن لولدى زوجة ، وهى فى فناء الدار ، فلو تفضلت بقراءته بين بابى الدار بحيث تسمعها . فأجابها لذلك ، ولكن لما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب ، وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به وأدخلنه إلى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفسها . فلما رأى أن لا خلاص له ، انتحى ركناً من المنزل وأخرج موسى كانت معه وحلق لحيته وحاجبه ، ثم خرج عليها . فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت بإخراجه . وبذلك عصمه الله ، وبقى على هيئته فيما بعد ، وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، على نحو ما فعل .

وركب ابن بطوطة النيل متجهاً إلى القاهرة عاصمة البلاد . فذكر أن القرى والمدن منتظمة على النيل ، متصل بعضها ببعض ، ولا يحتاج راكب النيل إلى أخذ طعام معه ، لأنه مهما أراد النزول إلى الشاطئ توضأ وصلى واشترى ما يحتاج إليه من طعام وغير ذلك لاتصال الأسواق بعضها ببعض . ولما وصل إلى العاصمة رأى كثرة سكانها وأن المدينة تموج بهم موج البحر ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها ، كما لاحظ أن شبابها مجد كادح ، ولكل عمل خاص به . فذكر أن بها من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء ، وأن بها ثلاثين ألف مكار ، وأن بنيلها من المراكب ستا وثلاثين ألفاً

للسلطان والرعية . على أن هذه المبالغة تدل على الأثر الطيب الذى تركته مصر فى نفس ابن بطوطة ، وغادرها إلى الشام أخيراً ليخرج مع قافلة حجاج دمشق إلى الحجاز .

٣

ابن بطوطة فى الشام

رحل ابن بطوطة من مصر إلى الشام عن طريق بلبيس والصالحية ، وكان طريقاً مزوداً بما يكفل الراحة للمسافرين ، إذ به محطات لرجال الأمن وفنادق للنازلين . ووصف ابن بطوطة هذا الطريق قائلا : « ثم وصلت إلى الصالحية ومنها دخلنا "الرمال" ، ونزلنا منازلها ، . . . وبكل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل ، وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته ، ومن منازلها "قطيا" المشهورة . . . وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتاب ، . . . ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة (أى تصريح) من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس . . . وطريقها فى ضمان العرب ، وقد وكلوا بحفظه ، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى

به أثر ، ثم يأتى الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل ، فإن وجد به أثراً طلب العرب بإحضار مؤثره ، فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه . بما شاء » .

وتنقل ابن بطوطة وهو فى الطريق ، بين مدن فلسطين والشام ، بعد أن أكرمته سلطات الحدود وأباحت له ولمن معه اجتياز البلاد إلى الشام . فزار أولا بيت المقدس وشاهد مسجدها العظيم وقبته الرائعة التى توجد تحتها الصخرة التى عرج منها الرسول إلى السماء . وأبدى ابن بطوطة إعجابه بروح الإخاء والمودة التى كانت سائدة بين المسلمين والمسيحيين بالشام . إذ قال : إن هناك ديراً خارج مدينة اللاذقية من أعظم أديرة الشام ومصر ، يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين يضيفه النصارى ويكرمونه ، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون .

* * *

على أن دمشق أخذت بلب ابن بطوطة حتى قال إنها جنة المشرق وعروس المدن ، تحدق بها البساتين إحداق الهالة بالقمر . وكان أول ما حرص على مشاهدته بها هو جامعها المعروف بجامع بنى أمية . فذكر أنه أعظم مساجد الدنيا بهاء وأتقنها صناعة ، له قبة هائلة ، ترى من أية جهة فى المدينة ،

وبه صحن فسيح يجتمع به أهل المدينة من قارئ ومحدث ، وفى وسطة شباك حديد فى وسطه أنبوبة نحاس يخرج منها الماء ، فيرتفع فى الهواء ثم ينثنى كأنه قضيب لجين ، يستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشراب . وفى الركن الشرقى منه خزانه كبيرة فيها المصحف الكريم الذى بعثه أمير المؤمنين عثمان بن عفان إلى الشام . وتفتح هذه الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة ، فيزدحم الناس على لثم المصحف ، كما يستحلف الناس دائنيهم هناك على الوفاء بأماناتهم .

وأشار ابن بطوطة إلى تركز الحياة والنشاط بمدينة دمشق حول هذا المسجد . فذكر أن له أربعة أبواب كل منها يطل على مرفق هام من مرافق المدينة . فيجد الخارج من الباب الشرقى المعروف بباب الساعات غرفة ، لها طاق كبير مقسم إلى طيقان صغيرة لها أبواب على عدد ساعات النهار . والأبواب ملونة من الداخل باللون الأخضر ، وظاهرها باللون الأصفر ، فإذا انقضت ساعة من النهار انقلب الجانب الداخلى الأخضر إلى الخارج ، وحل اللون الأصفر محله بالداخل . وكان بداخل الغرفة رجل يتولى قلب هذه الأبواب بيده عند مضى الساعات ، وأمام هذا الباب شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين ، وكذلك حوانيت صناع أوانى الزجاج ، وبالقرب منها سوق

الوراقين الذين يبيعون أدوات الكتابة من الورق والأقلام والمداد . ويمتد مع الجدار الجنوبى للمسجد سوق آخر رائج ، كان موضع قصر معاوية بن أبى سفيان وقومه من قبل . ويجد الخارج عن يمين الباب الغربى المعروف بباب البريد حوانيت الفاكهة .

وبهذا المسجد حلقات تدرس فيها فنون العلم ، إذ يجلس المدرس على كرسى مرتفع يقرأ الكتب على الحاضرين ، على حين ينتحى معلمو الصبيان جانباً من جوانب المسجد يلقنون الصغار القراءة ومعهم معلم الخط كذلك . ولاحظ ابن بطوطة أن معلم الخط غير معلم القرآن ، وأن الأخير يعلم الصبيان قراءة القرآن دون كتابته فى الألواح تنزيهاً لكتاب الله ، على حين يتولى معلم الخط تدريس الكتابة للصغار عن طريق كتابة الأشعار وما سواها . فكان الصبى يبدأ بالقراءة ثم الكتابة . وأشار ابن بطوطة إلى العالم المتقشف المحافظ تقى الدين بن تيمية ، وحضره يوم الجمعة بمسجد دمشق وهو يعظ الناس . فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا ؛ ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء ، وأنكر هذا القول ، فقامت العامة إلى هذا الفقيه ، وضربوه بالأيدى والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت

عمامته ، وظهر على رأسه غطاء من حرير ، فأنكروا عليه ذلك ، وحملوه إلى قاضى الحنابلة الذى أمر بسجنه .

* * *

وتحدث ابن بطوطة عن أهالى دمشق وطريقة حياتهم . فذكر أنهم لا يعملون يوم السبت ، وإنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ، ودوحات الأشجار ، بين البساتين النضرة والمياه الجارية ، ويقضون يومهم فى راحة وبهجة حتى يمسى الليل . وتكلم عن حب أولئك الأهالى لعمل الخير ، وعن الأوقاف الكثيرة التى خصصوها بمختلف الشئون الاجتماعية ، « فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لغير ذلك من أفعال الخير » .

وضرب ابن بطوطة مثلا على هذا النوع الأخير من الأوقاف بحادث شاهده بدمشق ، فقال : « مررت يوماً ببعض

أزقة دمشق ، فرأيت مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى ، فجمعها وذهب الرجل معه إليه ، فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خيراً من تسامت همته فى الخير إلى مثل هذا . »

* * *

ولم يغفل ابن بطوطة غرضه فى تأدية مناسك الحج برغم تجواله فى بلاد الشام . فأخذ يعد نفسه للرحيل إلى الحجاز ، وانضم إلى ركب حجاج الشام ، الذى عرف بالركب الحجازى لخروجه إلى الأراضى المقدسة .

٤
الحاج ابن بطوطة

خرج ابن بطوطة مع الركب الحجازى من دمشق أول شوال متجهاً إلى مكة . ووقف الركب عند مدينة بصرى مدة أربعة أيام ، ليلحق به من تخلف بدمشق لقضاء مآربه . فانتهز ابن بطوطة هذه المناسبة وزار الآثار الموجودة بهذه المدينة ، وشاهد مبرك ناقة الرسول ، حين وفد إلى بصرى فى تجارة خديجة قبل بعثته ، ورأى مسجداً عظيماً شيد على هذا المكان المبارك . ثم استأنف الركب سيره حتى بلغ تبوك ، وكانت من المحطات الهامة على طريق القوافل إلى الحجاز ، يقيم بها الركبان للتزود بالمياه وغيرها لاجتياز ما بعدها من الصحراء .

وكانت فى تبوك عين ماء نزل عندها الرسول فى غزوته المعروفة باسم هذه المدينة ، وتوضأ منها ، مما جعلها تعرف ببركة رسول الله . وحط الركب الشامى رحاله على هذه العين ، وأقام بها أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال . « ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولهم أحواض مصنوعة من

جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملأون الروايا والقرب ، ولكل أمير أو كبير حوض كبير يسقى منه جماله وجمال أصحابه ، ويملأ رواياهم ، وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جمله وملء قربته بشىء معلوم من الدراهم » .

ومن تبوك أخذ الركب يسير مسرعاً مجتازاً صحراء موحشة ، وصل بعد مسيرة خمسة أيام فيها إلى بئر الحجر ، المعروف بحجر ثمود . وهى عين تفيض بالمياه ، لكن الركب لم يتزود منها ، وكذلك يفعل غيرهم من الناس مع شدة عطشهم ، اقتداء بما فعله الرسول حين مر بهذه العين فى غزوة تبوك ، إذ أسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد . وشاهد ابن بطوطة بهذا المكان ديار ثمود منحوتة فى جبال من الصخر الأحمر ، ولها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة ، ورأى بالقرب منها كذلك مبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هناك . ثم تابع الركب سيره حتى بلغ « العلا » .

« والعلا قرية كبيرة حسنة ، لها بساتين النخل والمياه . . . يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويغسلون ثيابهم . . . وأهل هذه القرية أصحاب أمانة ، وإليها ينتهى تجار نصارى الشام لا يتعدونها ، ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه . » فأخذ منها

ركب الشام ما احتاج إليه من طعام ومياه ، ثم استأنف سيره حتى بلغ المدينة المنورة قرب المساء .

* * *

ولم يضيع ابن بطوطة فترة إقامة الركب بهذه المدينة سدى ، ولا سيما أنها تحفل بالكثير من الذكريات والآثار الإسلامية الرائعة . فزار قبر الرسول والمسجد الشريف والتقى بالمشرفين عليه . وكان إمام المسجد الشريف فى ذلك الوقت بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر ، وكذلك كان سلفه ، إذ كانت مصر ترعى المدن المقدسة وتزودها بالعلماء والمال . فذكر ابن بطوطة أن « خدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم ، وهم على هيآت حسان وصور نظاف وملابس ظراف ، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام ، وهو فى هيئة الأمراء الكبار ، ولهم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى إليهم بها فى كل سنة ، ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطرى من مطرية ، قرية بمصر . »

أقام ابن بطوطة ورفاقه بالمدينة أربعة أيام ، وكانوا يبيتون بالمسجد ، حيث أوقد الناس فيه الشمع الكبير ، وأخذوا يرتلون القرآن ، على حين ترنم غيرهم بالأناشيد فى مدح الرسول .

ووسط هذه المظاهر الدينية الرائعة خرج الحجاج من المدينة قاصدين مكة لأداء فريضة الحج .

وصل الركب إلى مكة صباحاً « وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها ، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ . . . وهى بواد غير ذى زرع . . . ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكل طرفة تجلب إليها ، وثمرات كل شىء تجبى لها ، ولقد أكلت (أى ابن بطوطة) بها من الفواكه والعنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له فى الدنيا ... وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة . »

* * *

وبدأ ابن بطوطة حديثه عن شعائر الحج وما قام به قائلا :
« وإذا كان فى أول يوم شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات ، وبكرة وعشية ، إشعاراً بالموسم المبارك ، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات . فإذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ، ويعلمهم بيوم الوقفة . فإذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود إلى منى ، وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك

الليلة بمنى ، وتقع المفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق فى إيقاد الشمع . . . فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة . . . وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح ، تحدق به جبال كثيرة ، وفى آخر بسيط عرفات جبل الرحمة ، وفيه الموقف . . . وفى أسفل هذا الجبل . . . صهاريج وجباب للماء ، وبمقربة منه الموضع الذى يقف فيه الإمام ويخطب . . . وإذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكى بيده ، ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال ، فياله موقفاً كريماً ، ومشهداً عظيماً ، ترجو النفوس حسن عقباه . »

« وكانت وقفتى الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين . . . ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة . . . ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى ، بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام . . . ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصبات الجمار ، وذلك مستحب ، . . . ولما انتهى الناس إلى منى بادروا الرمى ، جمرة العقبة ، ثم نحروا وذبحوا ، ثم حلقوا ، وحلوا من كل شىء إلا النساء والطيب . . . وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم ، فوضعت فى سطحه . فلما كان اليوم

الثالث بعد النحر أخذ المختصون ، فى إسبالها على الكعبة الشريفة ، وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير ، مبطنة بالكتان ، وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض . . . ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدى الناس ، والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة . »

وتحدث ابن بطوطة عن عطف الملك الناصر ، سلطان مصر ، على الأراضى المقدسة ، وأن الدعاء فى خطبة الجمعة كان باسمه أولا ، وأشاد بذلك فى وصفه لإحدى الصلوات بمكة يوم الجمعة ، قائلا : « فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد ، معتما بعمامة سوداء ، وعليها طيلسان أسود ، كل ذلك من كسوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة ، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين ، يتمسكها رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القومة فى يده الفرقعة ، وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ، ينفضه فى الهواء ، فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه . . . إعلاماً بخروج الخطيب . . . ثم يقصد المنبر ، والمؤذن الزمزمى — وهو رئيس المؤذنين — بين يديه ، لابساً السواد وعلى عاتقه السيف ...

وتركز الرايتان على جانبي المنبر . . . فإذا استوى فى عليا الدرجات . . . وقف داعياً . . . ثم يقبل على الناس ، فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس . . . فإذا فرغ الأذان ، خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . . . ثم يدعو للملك الناصر . . . فإذا فرغ من خطبته صلى وانصرف ، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه إشعاراً بانقضاء الصلاة . »

* * *

ولم يغفل ابن بطوطة عن الإشادة بالحياة الاجتماعية فى مكة وسط إسهابه فى الحديث عن أماكنها المقدسة ، والشعائر الدينية بها . فذكر ما تحلى به أهل مكة من مكارم الأخلاق وما طبعوا عليه من حميد العادات . فكانوا يبالغون فى إكرام الغرباء والمنقطعين للعبادة والفقراء . وإذا أقام أحدهم وليمة بدأ فيها بإطعام الفقراء والتلطف فى دعوتهم والإحسان إليهم . وأشار إلى أن أكثر المساكين المنقطعين يقيمون بالأفران ، حيث يطبخ الناس أخبازهم ، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله تبعه المساكين ، فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ، ولا يردهم خائبين ، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطى ثلثها أو نصفها ، طيب النفس بذلك من غير ضجر . ومن

أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ، ومع كل واحد منهم قفتان ، كبرى وصغرى ، وهم يسمون القفة « مكتلا » ، فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق ، فيشترى الحبوب واللحم والخضر ، ويعطى ذلك للصبى ، فيجعل الحبوب فى إحدى قفتيه ، واللحم والخضر فى الأخرى ، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته ، فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قط ، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجوه ، ولهم على ذلك أجرة معلومة من النقود .

« وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس ، وأكثر لباسهم البياض ، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر » . وأعجب ابن بطوطة بحسن روائهم وصحتهم الحسنة ، وذكر معللا ذلك بأنهم لا يأكلون فى اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ، ويقتصرون على هذه الوجبة ، ومن أراد الأكل فى سائر النهار أكل التمر .

واسترعى نظر ابن بطوطة أن « نساء مكة فائقات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف ، وهن يكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيباً ، وهن

يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة ، فيأتين فى أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً . »

* * *

ولم يبق ابن بطوطة طويلا فى مكة بعد أن انتهى من مناسك الحج ، ولم يفكر كذلك فى العودة إلى وطنه ، إذ تحركت فى نفسه غريزة التجوال وارتياد البلاد ، وبدأ مرحلة جديدة من الرحلات ، كانت الدرجة الأولى فى سلم طويل ارتقاه ابن بطوطة ، حتى وقف على قمة العالم المعروف على عهده ، وشاهد عجائبه وآثاره ، قانعاً بأن يقضى من عمره نحواً من عشرين سنة فى أسفار متصلة ورحلات متعاقبة . وهكذا حقق ابن بطوطة فراسة العالم المصرى برهان الدين ، ونبوءات الشيخ المرشدى .

٥
جولة فى ربوع العراق

غادر ابن بطوطة مكة فى عشرين من ذى الحجة فى صحبة ركب العراق ، وكان أمير هذا الركب شيخاً يدعى شهاب الدين قلندر ، ممن كان يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ، التى شاهد ابن بطوطة أتباعها فى مدينة دمياط . لكن توفى هذا الرجل قبل تحرك الركب العراقى ، وخلفه رجل آخر من أهل الموصل يدعى محمد الحويح . وكان ركب العراق يضم عدداً لا يحصى من الناس ، « تموج بهم الأرض موجاً ، ويسيرون سير السحاب المتراكم ، فمن خرج عن الركب لحاجة ، ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس . » وكان هذا الركب مزوداً بالمؤن والحاجات التى تكفل لأفراده الراحة والطمأنينة ، من جمال تحمل الماء والطعام ، والأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض ، فضلا عن عدد آخر من الجمال حمل عليها من لا قدرة له على المشى .

سار الركب ليلا تتقدمه المشاعل ، حتى أصبحت الأرض

تتلألأ نوراً ، وغدا الليل نهاراً ساطعاً . وظل يضرب فى طريقه إلى العراق نازلا بالمحطات الهامة ، ومتزوداً منها بما يحتاج إليه من طعام وماء . وكان الركب إذا حط رحاله طبخ الطعام فى قدور نحاسية عظيمة تسمى الدسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه فى الركب .

* * *

ولما وصل الركب إلى أرض النجف انفصل ابن بطوطة عن الناس ، وعول على مشاهدة هذه البلاد ، بادئاً بذلك أول حلقة فى سلسلة مشاهدات عديدة جديدة . وكانت بالنجف إذ ذاك مدينة من أبهى مدن العراق وأشهرها ، وتدعى مدينة « مشهد على ابن أبى طالب » . وهى عامرة بالأسواق والعلماء ، بها مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ، ويضاف بها كل وارد عليها مدة ثلاثة أيام ، يتناول فيها الخبز واللحم والتمر مرتين فى اليوم . وكان سكان هذه المدينة من غلاة الشيعة ، ويتولى تصريف شئونهم رجل يلقب بنقيب الأشراف ، يعين رأساً من السلطات المركزية ببغداد ، وله مطلق الحرية فى إدارة المدينة .

وترك ابن بطوطة مدينة مشهد على متجهاً إلى مدينة واسط فى رفقة ركب من عرب خفاجة ، الذين كانوا من أعظم الناس

شوكة ومهابة أثناء اجتيازهم البلاد العراقية ، وغدا السبيل الوحيد للسفر هو الاندماج فى ركبهم . فاكترى ابن بطوطة جملا بمساعدة أمير القافلة شامر بن دراج الخفاجى ، وخرج معهم إلى واسط . ولما وصلت القافلة إلى مدينة واسط أقامت بخارجها ثلاثة أيام للتجارة ، استغلها ابن بطوطة لدراسة المدينة وأحوالها .

لاحظ ابن بطوطة أن مدينة واسط من أشهر المدن فى العناية بالقرآن الكريم ، إذ يحفظه أهلها ويجيدون قراءاته الصحيحة ، ويأتى إليهم أهل بلاد العراق لتلقى العلم عليهم فى هذا السبيل ، وكان فى القافلة التى صحبها ابن بطوطة جماعة من الناس أتوا لتجويد القرآن على من بها من الشيوخ . وشاهد بها ابن بطوطة مدرسة عظيمة لتعليم القرآن ، بها ثلاثمائة خلوة ، ينزلها الغرباء الذين يبغون العلم . وأضاف رئيسها الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطى ابن بطوطة ، وزوده بالطعام والمال .

كذلك ذهب ابن بطوطة فى أثناء إقامته بواسط إلى زيارة قبر أحمد الرفاعى ، بقرية تعرف بأم عبيدة ، على مسيرة يوم من واسط . وبعث الشيخ تقى الدين مع ابن بطوطة ثلاثة من الأعراب رافقوه فى رحلته القصيرة . وتصادف فى أثناء وجود ابن بطوطة لزيارة قبر أحمد الرفاعى وصول حفيده الشيخ

أحمد قوجك ، الذى انتهت إليه رياسة أتباع أحمد الرفاعى . فشاهد الاحتفال باستقبال الشيخ الجديد . وهناك لما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف ، وأخذ الفقراء فى الرقص . ثم صلوا المغرب ، وبسطوا الموائد عليها خبز الأرز والسمك واللبن والتمر . ولما فرغ الناس من الأكل وصلاة العشاء ، أخذوا فى الذكر ، والشيخ أحمد جالس على سجادة جده الشيخ الرفاعى يشاهدهم . وقد أعدوا أحمالا من الحطب ، فأججوها ناراً ، ودخلوا فى وسطها يرقصون ، ومنهم من تمرغ فيها ، أو أخذ يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعاً . على حين شاهد غيرهم يأخذ الحية العظيمة ويعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه .

* * *

ولما انتهى ابن بطوطة من زيارة الشيخ الرفاعى عاد إلى مدينة واسط . فوجد الركب قد رحل ، فأسرع فى الطريق حتى لحقه ، وصاحبه حتى بلغ البصرة . وهناك لقى من سادتها كل ترحيب . فبعث إليه قاضيها حجة الدين صرة مملؤءة تمراً ، باعها ابن بطوطة بتسعة دراهم ، أخذ الحمال الذى نقلها إلى السوق ثلثها أجرة له . كذلك أضافه بها أحد العلماء ويدعى علاء الدين بن الأثير ، ومنحه ثياباً ومالا .

واسترعىٰ نظر ابن بطوطة ما وصلت إليه هذه المدينة من تدهور في الشئون الثقافية ، فقال « شهدت مرة بمسجدها صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب به إلى الخطبة وسردها ، لحن فيها لحناً كثيراً جلياً ، فعجبت من أمره ، وذكرت للقاضي حجة الدين ، فقال لي : إن هذا البلد لم يبق منه من يعرف شيئاً من علم النحو ؛ وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، سبحانه مغير الأشياء ! ومقلب الأمور ! هذه البصرة التي إلى أهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفروعه ، ومن أهلها إمامه الذي لا ينكر سبقه ، لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دءوبه عليها ! » .

* * *

ولم يستطع ابن بطوطة أن يكبح جماح رغبته في التجوال ، إذ ساقه الطريق من البصرة إلى زيارة بعض المدن بغربي إيران ، ثم عاد منها إلى العراق ، حيث نزل بالكوفة ، وسلك في ذلك طريقاً آخر قائلا : « ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك . » وهناك لاحظ ما طرأ على هذه المدينة من انحلال ، وتحطم سورها وتعرضها لإغارات البدو . على أنه زار مقابر الكوفة وشاهد بها قبر ابن ملجم الذي اغتال على ابن أبي طالب ، ورأى هذا القبر مغطى بسواد

حالك ، لأن أهل الكوفة يأتون كل سنة بالحطبْ الكثير ، ويوقدون النار على موضع القبر سبعة أيام ، تأسفاً على هذا الحادث الشنيع والخطب الجلل .

واسترعى نظر ابن بطوطة كثرة الشيعة بالقرب من الكوفة ، إذ زار بالقرب منها مدينة تسمى « الحلة » كل أهلها من طائفة الإمامية الاثنى عشرية[1] ، وشاهد بالقرب من سوقها مسجداً على بابه ستر من حرير مسدول ، يسميه أهالى المدينة مشهد صاحب الزمان ، ويعتقدون أن إمامهم محمد بن الحسن العسكرى دخل ذلك المسجد وغاب فيه ، وأنه سيخرج منه ، وأنه الإمام المنتظر ، فذكر ابن بطوطة أن « من عادتهم أن يخرج فى كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة ، عليهم السلاح ، وبأيديهم سيوف مشهورة ، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر ، فيأخذون منه فرساً مسرجاً ملجماً ، أو بغلة كذلك ، ويضربون الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ، ويتبعها مثلهم ، ويمشى آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان ، فيقفون بالباب ، ويقولون : باسم الله يا صاحب الزمان ، باسم الله اخرج ،

(١) الإمامية الاثنى عشرية طائفة من طوائف الشيعة .

قد ظهر الفساد ، وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك ، فيفرق الله بك بين الحق والباطل ، ولا يزالون كذلك ، وهم يضربون بالأبواق والطبول والأنفار إلى صلاة المغرب . »

اتجه ابن بطوطة من الكوفة إلى بغداد ، ومرّ فى طريقه على كربلاء التى استشهد فيها الحسين بن على بن أبى طالب . وكانت مدينة صغيرة تحف بها حدائق النخل ، تسقى من الفرات ، وبها مدرسة عظيمة وزاوية يقدم فيها الطعام للزائرين . وشاهد بها ابن بطوطة مشهد الحسين ، على بابه الحجاب ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة ، وهى من الفضة ، وعلى الضريح قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب ستائر الحرير .

* * *

ولما وصل ابن بطوطة إلى مدينة بغداد كانت عظمتها قد زالت[١] ، وأصبحت تستحق قول القائل :

لقد أقام على بغداد ناعيها
فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة
والنار تطفئ حسناً فى نواحيها

---

(١) زالت عظمة بغداد بسبب تدمير هولاكو المغولى لها سنة ٦٥٦ ﻫ .

ترجى لها عودة فى الدهر صالحة
فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التى ولت شبيبتها
وبان عنها جمال كان يحظيها

فشاهد ابن بطوطة الجانب الغربى من بغداد مشوهاً بالخراب ، بعد أن كان أول قسم فيها ظهر به العمران . على حين احتفظ جانبها الشرقى بشيء من أسواقها العظيمة . وشاهد أعظم هذه الأسواق ويدعى سوق « العجيبة » ، كل صناعة فيه لها مكان مخصوص ، وفى أحد جوانبه المدرسة المستنصرية ، التى مثلت فيها المذاهب الأربعة فى التدريس . لكل مذهب مكان ، فيه مسجد وموضع للتدريس . ويجلس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى مغطى بالبسط ، عليه السكينة والوقار ، لا بساً ثياباً سوداء ، وعن يمينه ويساره معيدان، يعيدان كل ما يمليه ، وكذلك سائر ترتيب الدراسة حسب المذاهب الأخرى . وكان بالمدرسة حمام للطلبة ودار للوضوء .

على أن أهل بغداد احتفظوا بمرحهم وحبهم للتمتع بما بقى فى مدينتهم من مباهج . فكانوا يخرجون رجالا ونساء للنزهة كل ليلة ،ولهم يوم فى كل جمعة لزيارة شيخ من أوليائها . وكان صاحب الأمر على العراق حين وصول ابن بطوطة بغداد « أبو سعيد

بهادر خان[1] » ، الذى أعجب ابن بطوطة بموكبه وحاشيته .
فعندما يريد أبو سعيد الرحيل يُعد موكب حافل له ، ويأتى
كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه ، ويقف فى موضع
لا يتعداه ، مخصص له إما فى الميمنة أو الميسرة . فإذا تم
الجمع وتكاملت الصفوف ، ركب الملك ، وتضرب طبول
الرحيل ، فيأتى كل أمير منهم ويسلم على الملك ، ثم يعود إلى
موقفه . ويتقدم موكب الملك الحجاب والنقباء ، ويليهم أهل
الطرب ، وعددهم مائة رجل عليهم أبهى الثياب . وأمام أهل
الطرب عشرة من الفرسان معهم عشرة من الطبول يدقون عليها .

ويتولى أمير الجند تنظيم الموكب ، ويسأل عمن تخلف
عن الركب ، وينزل به أقصى العقوبة . فإذا غاب أحد عن
الاشتراك مع فرقته ، أخذ وعلق فى رقبته كيس مملوء رملا ،
ويمشى على قدميه حتى يصل إلى دار الأمير ، فينبطح على
الأرض ويضرب خمساً وعشرين مقرعة على ظهره ، سواء أكان
رفيعاً أم وضيعاً ، لا يستثنى منهم أحد . وقبل مسير الموكب
يغنى أهل الطرب ، ثم يتحرك الموكب ، يحف بالسلطان
الأمراء عن اليمين والشمال ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والطبول
والبوقات ، ثم مماليك السلطان ، ثم الأمراء على اختلاف مراتبهم .

* * *

ومن بغداد قام ابن بطوطة بعدة رحلات إلى بعض مدن العراق الهامة قبل مغادرته هذا القطر ، حيث عزم على أداء فريضة الحج للمرة الثانية . وشاهد فى رحلاته الأخيرة آبار البترول بالعراق الواقعة بالقرب من مدينة تكريت . فبعد أن غادر هذه المدينة فى طريقه إلى الموصل ، مر بقرية تعرف « بالقيارة » على مقربة من دجلة . وقال ابن بطوطة « هنالك أرض سواد ، فيها عيون تنبع بالقار ، ويصنع له أحواض ، ويجتمع فيها ، فتراه أشبه الصلصال على وجه الأرض ، حالك اللون ، صقيلا رطباً ، وله رائحة طيبة ، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء ، يعلوها شبه الطحلب الرقيق ، فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضاً قاراً ، وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة ، فإذا أرادوا نقل القار منها ، أوقدوا عليها النار ، فتنشف بالنار ما هنالك من رطوبة مائية ، ثم يقطعونه قطعاً ، وينقلونه . »

وقضى ابن بطوطة فى هذه الجولة الأخيرة شهرين عاد بعدها إلى بغداد ، حيث وجد ركب الحاج قد تهيأ بها تحت إمرة محمد الحويج وهو بعينه أمير الركب الذى وفد معه ابن بطوطة إلى العراق . وكان التعب قد حل بابن بطوطة حين غادر بغداد قاصداً الحجاز للمرة الثانية ، إذ أصابه إسهال عانى

منه كثيراً فى أثناء الرحلة . ووصف حالته قائلا : « كانوا ينزلوننى من أعلى المحمل مرات كثيرة فى اليوم ، والأمير يتفقد حالى ، ويوصى بى . ولم أزل مريضاً حتى وصلت مكة حرم الله تعالى . » وكان وصوله مكة إذ ذاك سنة ٧٢٨ هـ ، أى بعد سنتين تقريباً من حجته الأولى .

وظل الضعف يعمل عمله فى ابن بطوطة ، حتى إنه طاف وسعى بين الصفا والمروة راكباً ، ولم يستطع مغادرة مكة ، بعد أن انقضى الحج فى تلك السنة ، فأقام بها سنة كاملة ، قضاها فى الدرس ، حيث نزل فى المدرسة المظفرية . وفى نهاية العام حج للمرة الثالثة فى سنة ٧٢٩ هـ ، وكان قد استرد نشاطه وحيويته . فتجدد عنده الشوق للارتحال ، وإشباع رغبته فى التجوال . وتوجه إلى زيارة أقوام جدد من المسلمين على ساحل أفريقية الوسطى الشرقى ، وعزم على الذهاب إلى هذه البلاد ماراً ببلاد اليمن .

٦

حول البحر الجنوبى

خرج ابن بطوطة من مكة سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) ، قاصداً بلاد اليمن . فبلغ جدة ميناء الحجاز على البحر الأحمر ، وركب منها البحر فى مركب يسميه أهاليها « الجلبة » . وهاب ابن بطوطة الرحلة فى أول الأمر لأنه لم يسبق له أن ركب البحر قبل هذه التجربة . وصاحبه فى هذه الرحلة جماعة من أهل اليمن عائدين إلى بلادهم ، ركبوا بدورهم فى هذه السفن المعروفة « بالجلب » حاملين فيها زادهم ومتاعهم . وكانت الرياح طيبة مواتية حين أبحروا إلى اليمن ، ولكن بعد يومين تغيرت الرياح ، وهاج البحر حتى طغت المياه على المراكب ، واشتد هلع المسافرين وجزعهم ، وظلت تتقاذفهم الأمواج حتى وصلوا مرسى يعرف باسم « رأس دوائر » فيما بين عيذاب وسواكن .

وهناك نزلوا بالساحل ، ووجدوا به عريش قصب على هيئة مسجد ، فاستراحوا فيه ، وأقاموا به بعض الوقت . وأعجب

ابن بطوطة بهذا الميناء ، وبصيد السمك فيه ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجونه وقد امتلأ سمكاً ، كل سمكة فى حجم الذراع ، ويسمى بالبورى . فاشترى المسافرون منه ما سد حاجتهم . وجاء إلى رهط ابن بطوطة هناك طائفة من البجاة سكان هذه الأرض التى نزلوا بها . وهم سود اللون ، لباسهم ملاحف صفر ، ويشدون على رؤوسهم عصائب حمراً فى عرض الأصبع . وكانوا أهل نجدة وشجاعة ، سلاحهم الرماح والسيوف ، يركبون جمالا يسمونها الصهب ، ويضعون فوقها السروج .

استأجر الرهط المسافر منهم جمالا ، وسافروا معهم فى منطقة مملوءة بالغزلان ، لم يتعرض لها البجاة بسوء ، أو صيد . وأخيراً وصلوا إلى جزيرة سواكن التى لا حظ ابن بطوطة أن المياه تجلب لها فى القوارب ، فضلا عن الصهاريج المقامة بها ليتجمع بها ماء المطر . ومن سواكن ركبوا البحر مرة أخرى إلى اليمن . ووصف ابن بطوطة الطريق قائلا : « وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويرسون وينزلون إلى البر ، فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب . وهم يسمون رئيس المركب « الربان » ، ولا يزال أبداً فى مقدم المركب ، ينبه

صاحب السكان على الأحجار ، وهم يسمونها " النباث" . »

* * *

وبعد ستة أيام من مغادرتهم سواكن وصلوا إلى مدينة تسمى « حلِي » ، أكرم سلطانها المسمى عامر بن ذويب ابن بطوطة واحتفى به ، وكانا قد تعارفا فى موسم الحج السابق . وأقام ابن بطوطة فى ضيافته أياماً ، ثم سافر بحراً إلى مدينة زبيد . وقال إنها من أبهى وأغنى مدن اليمن » ، « ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ، ولنسائها الحسن الفائق الفائت ، . . . ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة ، وذلك أنهم يخرجون فى أيام البسر والرطب فى كل سبت إلى حدائق النخل ، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات . »

على أن ابن بطوطة أعجب أيما إعجاب بنساء هذه المدينة وتقاليدهن ، إذ « تخرج النساء ممتطيات الجمال فى المحامل ، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائت الأخلاق الحسنة والمكارم. وللغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه ، كما يفعل نساء بلادنا ، فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته ، وإن كان بينهما ولد فهى تكفله ، وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها ؛

وإذا كان مقيماً فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً ، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل . »

أقام ابن بطوطة فى هذه المدينة فى ضيافة فقهائها ، فأكرموه وأروه بساتينهم وحدائقهم . وزار علماءها والأولياء المقيمين فى ضواحيها . ثم سافر إلى مدينة « تعز » حاضرة ملك اليمن . وكانت عبارة عن ثلاثة أحياء ، يسكن أحدها السلطان وحاشيته ، والثانى يسكنه الأمراء والجند ، والأخير يقيم به عامة الناس ، وبها السوق التى يسمونها « المحالب » . ونزل ابن بطوطة فى هذه المدينة فى ضيافة قاضى قضاتها صفى الدين الطبرى ، وأقام عنده ثلاثة أيام .

وفى اليوم الرابع من نزول ابن بطوطة فى هذه المدينة ، وهو يوم الخميس ، اصطحبه القاضى لمقابلة السلطان ، حيث يجلس لعامة الناس فى هذا اليوم . فسلم ابن بطوطة على السلطان وروى المقابلة قائلا : « وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته ، ثم يرفعها إلى رأسه ، ويقول : أدام الله عزك . . . وقعد القاضى عن يمين الملك ، وأمرنى فقعدت بين يديه ، فسألنى عن بلادى . . . وعن ملك مصر والعراق . . . فأجبته عما سأل من أحوالهم ، وكان وزيره بين يديه ، فأمره بإكرامى . »

* * *

ووصف ابن بطوطة طريقة جلوس هذا الملك ، إذ « يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير ، وعن يمينه ويساره أهل السلاح ، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ، ويليهم أصحاب القسى ، وبين يديهم فى الميمنة والميسرة الحاجب ، وأرباب الدولة ، وكاتب السر وأمير جندار (حارس الملك) على رأسه ، والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد ، فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة باسم الله ، فإذا قام فعلوا مثل ذلك ، فيعلم جميع من بالمشور[1] وقت قيامه ووقت قعوده . »

وكان الطعام الذى يقدم فى مجلس الملك نوعين ، طعام للعامة وآخر للخاصة . ويأكل من الأخير السلطان وقاضى القضاة وكبار الأشراف والفقهاء والضيوف . أما الطعام العام فيأكل منه سائر الفقهاء والقضاة ووجوه الأجناد والناس . رأقام ابن بطوطة فى ضيافة الملك أياماً ، ثم رحل إلى مدينة صنعاء .

استرعى نظر ابن بطوطة فى هذه المدينة نزول الأمطار بها

---

(١) المشور ، مجلس السلطان للاستقبال .

صيفاً ، إذ هو من أبناء حوض البحر الأبيض المتوسط الذى تهطل أمطاره شتاء . فذكر أن المطر فى صنعاء « إنما ينزل فى أيام القيظ ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان . فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر ، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة ، ومدينة صنعاء مفروشة كلها ، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها . »

غادر ابن بطوطة صنعاء إلى عدن ميناء بلاد اليمن العظيم ، ومن أهم المرافئ بها ، لما تأتى إليه من سفن الهند وغيرها من أقاصى البلاد . ونزل ابن بطوطة بها فى ضيافة أحد كبار التجار فيها ويدعى ناصر الدين الفأرى . وذكر أن هذا التاجر كان يضيف كل ليلة نحواً من عشرين تاجراً ، وله غلمان وخدم كثيرون . ولاحظ ابن بطوطة بها كذلك عظم ثراء التجار ، وكثرة المفاخرات والمباهاة فيما بينهم .

أرض الصومال

عبر ابن بطوطة البحر من عدن إلى زيلع ، ودون مذكراته قائلا : « سافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام ،

ووصلت زيلع ، وهى مدينة البربرة ، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب . وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مَقْدَشو . ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن ، وأهل زيلع سود الألوان . » ولم يعجب ابن بطوطة بمدينة زيلع رغم ما شاهده من رواج فى أسواقها ، إذ قال : « إنها أقذر مدينة فى المعمور ، وأوحشها وأكثرها نتناً ، وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة . ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نبت بها لقذرها . »

سافر ابن بطوطة من زيلع إلى مَقْدَشو بطريق البحر ، ووصلها بعد خمس عشرة يوماً . وذكر ما بينها وبين مصر من اتصال تجارى ، وروَاج الصناعات المصرية بها ، كما أشاد باهتمام أهلها بالتجار الوافدين عليها . فكان « من عادة أهل هـذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق ، وهى القوارب الصغار إليه ، ويكون فى كل صنبوق جماعة من شبان أهلها ، فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجار المركب ، ويقول هذا نزيلى ، وكذلك يفعل كل واحد منهم ، ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى نزيله من هؤلاء الشبان ، إلا من كان كثير التردد إلى البلد ، وحصلت له معرفة بأهله ، فإنه ينزل حيث

شاء . فإذا نزل عند نزيله باع ما عنده واشترى له . ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك مردود عندهم ، ولهم منعة فى ذلك . »

* * *

ونزل ابن بطوطة فى ضيافة علماءهذه المدينة وعند سلطانها ، واحتفوا به منذ استقباله وهو فى المركب . وأشاد بذلك قائلا : « ولما صعد الشبان إلى المركب الذى كنت فيه ، جاء إلى بعضهم ، فقال له أصحابى ، ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه ، فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضى . وكان فيهم أحد أصحاب القاضى ، فعرفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر فى جملة من الطلبة ، وبعث إلى أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابى وسلمت على القاضى وأصحابه . »

اصطحب القاضى ابن بطوطة إلى سلطان مقدشو ، الذى يلقب بالشيخ ، إذ كانت العادة ألا ينزل الفقيه أو الشريف الوافد إلى هذه البلاد عند أحد إلا بعد مقابلة السلطان . وكان هذا القاضى الذى رافق ابن بطوطة يدعى بابن البرهان ، من أصل مصرى . فأخذ ابن بطوطة إلى حضرة السلطان وأعلمه أنه قد وصل من أرض الحجاز . فبعث السلطان إلى القاضى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل ، أخذ منها ابن بطوطة عشر

اوراق مع قليل من الفوفل ، ونال القاضى بعضاً منها وكذلك الطلبة .

وشرح ابن بطوطة هذه العادة الخاصة بتقديم ورق التنبول مع وصف لهذا النبات أيضاً . فقال إن التنبول شجر يغرس كما يغرس العنب ، ويصنع له معرشات من القصب ، كما يعمل للعنب ، ليصعد عليها . وليس لشجر التنبول ثمر ، وإنما المقصود منه ورقه ، الذى يشبه ورق العليق[1] . إذ تجنى أوراقه ، ويقدم منها رب البيت للضيوف ، فإذا أعطاه خمس ورقات منها ، فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها . ويستعمل مع هذا الورق ما يسمى بالفوفل[2] ، وهو شىء أشبه بجوز الطيب ، يكسر ويضعه الإنسان فى فمه ، ثم يأخذ معها ورق التنبول ويمضغها مع الفوفل ، مما يجعل نكهة الفم طيبة ، ويزيل ما به من رائحة كريهة ، ويساعد على الهضم . ويتناول المرء عادة هذا المزيج فى الصباح ليجدد به نشاطه .

* * *

وأمر السلطان أن ينزل ابن بطوطة بدار الطلبة ، وكانت معدة لضيافة من يتلقى العلم ، وتقع على مقربة من دار السلطان ، حسنة الفرش والترتيب . وجاء الطعام إلى ابن بطوطة من عند

---

(١) طعم هذا الورق يشبه القرنفل .

(٢) الفوفل نوع من النخل ، تحمل ثماراً أشبه بالتمر .

السلطان رأساً مع أحد الوزراء . ووصف ابن بطوطة هذا الطعام بأنه « أرز مطبوخ بالسمن ، يجعلونه فى صحفة خشب كبيرة ، ويجعلون فوقه صحاف الكوشان ، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول . ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب ، ويجعلونه فى صحفة ، ويجعلون اللبن المريب فى صحفة ، ويجعلون عليه الليمون المصبر ، وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الأخضر ، " والعنبا " ، وهى مثل التفاح ، ولكن لها نواة ، وهى إذا نضجت شديدة الحلاوة ، وتؤكل كالفاكهة ، وقبل نضجها حامضة كالليمون ، يصبرونها فى الخل . وهم إذا أكلوا اللقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات . »

* * *

ولاحظ ابن بطوطة إفراط أولئك السكان فى الأكل ، وضخامة أجسامهم ، ووصف ملابس عظمائهم ، وهى من الثياب المصرية الصنعة ، وذكر ذلك فى حديثه عن حضوره صلاة الجمعة مرة معهم ، فقال : وجاءنى القاضى والطلبة وأحد وزراء الشيخ ، وأتونى بكسوة ، وكسوتهم فوطة خز يشدها الإنسان فى وسطه عوض السراويل ، فإنهم لا يعرفونها ، ودراعة من المقطع المصرى معلمة ، وفرجية من القدسى المبطن ،

وعمامة مصرية معلمة . . . وأتينا الجامع ، فصلينا خلف المقصورة . فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضى ، فرحب ، وتكلم بلسانهم مع القاضى ، ثم قال باللسان العربى : قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا . . . ثم خرج من باب المسجد ، فلبس نعليه ، وأمر القاضى أن ينتعل ، وأمرنى أن أنتعل ، وتوجه إلى منزله ماشياً ، وهو بالقرب من المسجد ، ومشى الناس كلهم حفاة ، ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون . . . وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قدسى أخضر ، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان ، وهو متقلد بفوطة حرير ، وهو معتم بعمامة كبيرة . »

* * *

ورحل ابن بطوطة من أرض الصومال ، وقصد جنوب بلاد العرب مرة أخرى . وانتهز هذه الفرصة وأدى فريضة الحج للمرة الرابعة ، ثم عاد إلى مصر قاصداً مشاهدة أراض جديدة ، قد وصل إليها الإسلام منذ فترة قصيرة قبل قيامه برحلته الطويلة . وكانت وجهته آسيا الصغرى ، حيث بدأ الأتراك العثمانيون نشاطهم لنشر الإسلام هناك ، وتكوين مجد سياسى جديد للإسلام .

٧
الفتوة والفروسية
شعار الأتراك العثمانيين

أرض الحظ والحب

دخل ابن بطوطة بزيارته لآسيا الصغرى فى بلد ضم جماعة مغامرة ادخرها المستقبل لرسم خريطة الشرق العربى فى العصر الحديث . وكانت هذه الجماعة عنصراً من جنس أسيوى يعرف بالأتراك هاجر إلى بلاد الدولة العباسية وانتشر فى أرجائها . وظهر على مسرح السياسة جماعة من أولئك الأتراك عرفوا بالسلاجقة ، دأبوا على توسيع رقعة الدولة الإسلامية . فاتجهوا نحو آسيا الصغرى ، واتخذوا من مدينة قونية والمنطقة المحيطة بها مستقراً لهم .

ولكن سرعان ما دب الضعف فى دولة السلاجقة وظهرت هجرات قبائل تركية أخرى ، حلت إحداها بالقرب من إمارة السلاجقة بآسيا الصغرى . وعرفت هذه القبيلة التركية الأخيرة رؤساء كباراً هيأوا لها مكانة كبرى على أنقاض إمارة السلاجقة

المتداعية . وبذ أولئك الرؤساء زعيم يدعى عثمان نسبت إليه تلك القبيلة وما تفرع عنها من مجد سياسى وغدا أبناؤها يطلقون على أنفسهم الأتراك العثمانيين .

وكان عثمان فى الرابعة والعشرين من عمره حين تولى شئون قبيلته سنة ١٢٨٨ م . واشتهر بحسن القيادة وجرأة القلب والصبر على قتال الأعداء . وتجلت مواهبه منذ كان صغيراً يتجول مع قبيلته ، فقد كان يقيم بالقرب من مضارب قبيلته شيخ يدعى « أدب عالى » عرف بسعة العلم والورع . وكان عثمان يتردد على هذا الشيخ ، وداوم على زيارته لما رأى فيه من العلم والفضل والصلاح . ولكن زاد تعلق عثمان بهذا الشيخ بعد أن رأى ابنته وتسمى « مال خاتون » وما هى عليه من الجمال البارع والطلعة البهية .

وكاشف عثمان الشيخ « أدب عالى » بما يكنه فؤاده من الحب لابنته وسأله الاقتران بها . فأنكر عليه أبوها ذلك لما كان من فارق بينه وبين عثمان فى الناحية الاجتماعية . ولكن عثمان دأب على زيارة الشيخ رغم ارتحاله إلى منطقة بعيدة حيث لم يستطع الابتعاد عن حبيبته . وكان الشيخ لا يرفض أن يضيف عثمان كلما نزل فى رحابه . ثم حدث فى إحدى الليالى التى قضاها عثمان فى بيت الشيخ « أدب عالى » أن رأى حلماً

غريباً . فقد رأى بدراً يصعد من صدر الشيخ « أدب عالى » ثم مال إلى صدره وغاب فيه . ثم خرجت من صلبه شجرة عظيمة أخذ شكلها يعظم وجمالها يزيد بالتدريج إلى أن صارت شجرة باسقة .

ورأى عثمان كأن منابع الدجلة والفرات والداوب والنيل تنفجر من أصل هذه الشجرة ، وأن مياه هذه الأنهار تموج بالسفن والزوارق . وشاهد كذلك أودية بها مدن فاخرة وتعلوها المآذن ، والهلال يضئ من السماء . ولم يلبث أن قامت زوبعة عصفت بأوراق الشجرة الهائلة ، واتجهت بعض أوراقها نحو القسطنطينية ، وتابع عثمان هذه الأوراق إلى القسطنطينية حيث وجد خاتماً عظيماً ، تناوله ليضعه فى إصبعه ، ولكن استيقظ إذ ذاك .

قص عثمان رؤياه على الشيخ « أدب عالى » . فوجد الشيخ فى الرؤيا فألاحسناً وطالعاً سعيداً ، وتوسم الشرف والمجد والفخار والسلطان لأولاد عثمان من « مال خاتون » . ولم يعترض على زواج عثمان من ابنته ، وتولى تلميذ للشيخ عقد قران عثمان . وعندما صار عثمان أمير قبيلته بنى تكية لهذا التلميذ وأوقف عليها أوقافاً عظيمة من القرى والأرض الزراعية .

وبدأ عثمان نشاطه الحربى بعد أن تحققت المرحلة الأولى

من حلمه وصار سيد قبيلته . فأخذ يستولى على البلاد والمناطق المجاورة له ، وحرص على تطبيق العدل والإنصاف على الجماعات التى اندرجت تحت لوائه . وسرعان ما تلألأ نجمه حين توفى آخر سليل للأمير السلجوقى الجالس على عرش مدينة قونية . فاستولى عثمان على المدينة وسار منها شمالا مخترقاً آسيا الصغرى والمدن بها تسقط فى يده الواحدة تلو الأخرى ، حتى وصل إلى شاطئ البحر الأسود .

وكان ابن عثمان ويدعى أورخان يساعد أباه فى عمليات الفتح ، واستولى سنة ١٣٢٦ على مدينة بروسة . واستقبل عثمان ابنه استقبالا حاراً وهنأه بهذا الفوز الباهر . ولكن الموت قد أخذ يطرق باب عثمان . فلم يجزع ، وإنما استدعى ابنه أورخان وقال له « أى بنى ! إنى أموت ، ولكن غير آسف ولا مضطرب لأنى أترك ورائى خير من يخلفنى وهو أنت يا ولدى العزيز . أى بنى ! عليك بتقوى الله فى السر والعلانية ، وانشر العدل ، فهو أساس الملك . وكن رحيماً فإن الله قد وصف نفسه بالرحمة ، وليكن أضعف الناس عندك القوى ، حتى تأخذ له الحق . روج مبادئ الإسلام ، واعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فإنك إن عملت بوصيتى كنت من الأولياء الذين فازوا برضاء الله . »

وأوصى عثمان بأن ينقل رفاته إلى بروسة ، ولما لفظ النفس

الأخير احترمت وصاياه وبنى له هناك مقبرة هائلة . وهكذا كان مؤسسوا الدولة العثمانية يضعون البذور التى شاهد نبتها ابن بطوطة ، ولا سيما حرصهم على نشر الإسلام بآسياالصغرى . ونجم عن مجهودات الزعماء العثمانيين انتشار التصوف ، وتعدد طرق الدراويش . وإلى جانب هذه الطرق الصوفية أدت أعمال العثمانيين إلى ظهور نظام الفتوة ، الذى كان الطابع الإسلامى للفروسية العربية . ولكن أخذ هذا النظام مظهراً جديداً فى آسيا الصغرى على يد الأتراك ، عرف باسم الأخيات ، وهى تسمية مشتقة من كلمة أخى .

وكان نظام الأخيات أو الإخوان أشبه بنظام النقابات الاقتصادية ، وانتشرت فى سائر مدن آسيا الصغرى ، وعرف أفرادها بالشهامة وإكرام الضيف . وقد شاهد ابن بطوطة كثيراً من هذه الجماعات ، ولقى منها كل كرم وحفاوة ووصفها وصفاً رائعاً كشف عن المستقبل الباهر الذى كان ينتظر الأتراك العثمانيين .

الأخيات أو جماعات الإخوان

نزل ابن بطوطة فى « العلايا » على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وكانت حينئذ ميناء كبيراً يسكنه التركمان ، وينزله تجار مصر والإسكندرية والشام للحصول على أخشابها الجيدة . ومنها بدأ ابن بطوطة طوافه ببلاد الأناضول ، ملاقياً من أهاليها كل إكرام ورعاية ، إذ هم على قوله « أكثر خلق الله شفقة . . . وكنامتى نزلنا بهذه البلاد . . . يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء ، وهن لا يحتجبن ، فإذا سافرنا عنهم ودعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا . وترى النساء باكيات لفراقنا ، متأسفات . ومن عاداتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز فى يوم واحد من الجمعة ، يعدون فيه ما يقوتهم سائرها . فكان رجالهم يأتون إلينا بالخبز الحار فى يوم خبزه ، ومعه الإدام الطيب إطرافاً لنا بذلك ، ويقولون لنا ، إن النساء بعثن هذا إليكم ، وهن يطلبن منكم الدعاء . »

ولاحظ ابن بطوطة انتشار نظام جماعات الإخوان أو الفتيان بسائر مدن الأناضول وقراه ، يدعى رئيسهم «بالأخى». وكانت هذه الجماعات تضم الشبان الأعزاب أبناء الطائفة الواحدة أو القرية الواحدة فيقدمون عليهم رئيساً لهم، ويتعاونون على البر

وإكرام الضيف الغريب . ووصف ابن بطوطة هذا النظام وصفاً جيداً ، وأبدى ما اتصفوا به من شهامة ، فضلا عن إشادته بالترحيب الذى ناله عندهم .

ذكر ابن بطوطة أنه « لا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام ، وقضاء الحوائج ، والأخذ على أيدى الظلمة . . . و « الأخى » عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ، ويقدمونه على أنفسهم . . . ويبنى زاوية ، ويجعل إليه فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات . ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام ، إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية . فإن ورد فى ذلك العصر مسافر على البلد ، أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافة لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد ، اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم » .

ووصف ابن بطوطة كرم هذه الجماعات قائلا : نزلت فى مدينة أنطاكية عند شيخ يدعى شهاب الدين الحموى ، فأتى أحد هؤلاء الفتيان وتكلم مع الشيخ باللسان التركى ، « ولم أكن

يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب خلقة ، وعلى رأسه قلنسوة لبد . فقال لى الشيخ : أتعلم ما يقول هذا الرجل ؟ ، فقلت ، لا أعلم ما قال ؛ ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك ؛ فعجبت منه ، وقلت له نعم ! فلما انصرف ، قلت للشيخ ، هذا رجل ضعيف ، ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ ، وقال لى ، هذا أحد شيوخ الفتيان الأخية ، وهو من الخرازين (الإسكافية) ، وفيه كرم نفس ، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل . فلما صليت المغرب ، عاد إلينا ذلك الرجل ، وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة ، مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس . والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث ، وعلى رأسه شبه غطاء من نحاس ، وفى وسطه أنبوب للفتيلة ، ويملأ من الشحم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم ، وفيها مقراص لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكل بها ، ويسمى عندهم « الجراجى » .

وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم

الأقبية ، وفى أرجلهم الأخفاف ، وكل واحد منهم متحزم ، على وسطه سكين فى طول الذراعين ، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض أصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزدخانى وسواه ، حسنة المنظر . وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم ، أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص . فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم ، وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم . »

وهكذا كان ابن بطوطة موضع إكرام الإخوان حيثما ذهب فى بلاد الأناضول ، وتنافسوا فيما بينهم على ضيافته عندهم ومن معه من الركب . فذكر قصة طريفة تبين ذلك حين دخوله مدينة تسمى « لاذق » ، فقال : « وعند دخولنا لهذه المدينة ، مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم ، وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم فى ذلك رجال آخرون . وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون . فخفنا منهم ، وظننا أنهم ممن يقطعون الطريق ، وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا . ثم بعث الله لنا رجلا

حاجاً يعرف اللسان العربى ، فسألته عن مرادهم . فقال إنهم من الفتيان ، وأن الذين سبقوا إلينا هم أصحاب الفتى أخى سنان ، والآخرون أصحاب الفتى أخى طومان ، وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم .

فعجبنا من كرم نفوسهم ، ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة ، فمن كانت قرعته ، نزلنا عنده أولا . فوقعت قرعة أخى سنان ، وبلغه ذلك ، فأتى إلينا فى جماعة من أصحابه ، فسلموا علينا ، ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام . ثم ذهب بنا إلى الحمام ، ودخل معنا ، وتولى خدمتى بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابى . . . ثم خرجنا من الحمام ، فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة ، وبعد الفراغ من الأكل ، قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ، ثم أخذوا فى السماع والرقص . »

* * *

ومن أطرف ما لاحظه ابن بطوطة ادعاء بعض الفقهاء الأتراك معرفة اللغة العربية ، وما صادفه من مواقف نتيجة التباس بعض الألفاظ العربية بالتركية . فروى أنه نزل فى مدينة تسمى « كاوية » وجاء الفقيه ليقدمه إلى الناس بها . ولكنه خاطب ابن بطوطة وأصحابه بالفارسية ، ولم يكونوا يعرفونها ، فأجابوه بالعربية ، دون أن يفهم أحدهما الآخر .

وعندئذ أراد الفقيه ستر نفسه أمام الناس ، حين ظنوا أنه يعرف اللسان العربى ، وهو لا يعرفه ، فقال لهم « هؤلاء يتكلمون بالكلام العربى القديم ، وأنا لا أعرف إلا العربى الجديد. . . وهؤلاء تجب كرامتهم لأنهم يتكلمون باللسان العربى القديم ، وهو لسان النبي صلى الله عليه وسلم . » ويذكر ابن بطوطة أنه أدرك هذا فيما بعد ، حيث حفظ ما قاله هذا الفقيه وفهمه بعد أن درس اللغة الفارسية .

وذكر كذلك قصة أخرى فى هذا الصدد ، قائلا : « بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب ، وبعثت أحدهم يشترى السمن ، فأتى أحدهما بالتبن ، والآخر دون شيء ، وهو يضحك . فسألناه عن سبب ضحكه ، فقال ، إنا وقفنا على دكان بالسوق ، فطلبنا منه السمن ، فأشار إلينا بالوقوف ، وكلم ولداً له ، فدفعنا له الدراهم ، فأبطأ ساعة ، وأتى بالتبن ، فأخذناه منه ، وقلنا له ، « إنا نريد السمن ! » فقال : « هذا السمن » ! . واتضح أنهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك ، وأما السمن فيسمى عندهم « رباغ » .

* * *

ولاقى ابن بطوطة كثيراً من الناس ، ممن يدعون التدين ، وليس لهم فى هذه الصفة نصيب . فقال إنه وجد أحد الحجاج

الذين يعرفون اللغة العربية ، « ورغبنا منه أن يسافر معنا إلى قسطمونية ، وكسوته ثوباً مصرياً من ثيابى ، وأعطيته نفقة تركها لعياله ، وعينت له دابة لركوبه ، ووعدته الخير . وسافر معنا ، فظهر لنا من حاله أنه ساقط الهمة ، خسيس الطبع ، سيئ الأفعال . وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيسرق منها . وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك . وانتهت حاله إلى أن فضحناه ، وكنا نقول له فى آخر النهار ، يا حاج ! كم سرقت اليوم من النفقة ؟ ! فيقول كذا ، فنضحك منه ، ونرضى بذلك .

* * *

واختتم ابن بطوطة طوافه ببلاد الأناضول بالذهاب إلى صنوب ، وأشار إلى الصراع الحربى المبكر بين الأتراك والروم ، الذين كانت بيدهم القسطنطينية . وكانت صنوب من أجل ذلك مدينة محصنة ، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة ، وهى جهة الشرق ، ولها هنالك باب واحد لا يدخل إليها أحد إلا بإذن أميرها . واشتهر من بين من تولى إدارتها من الأمراء شخص يدعى غازى ، « وكان شجاعاً مقداماً ، وهبه الله خاصية فى الصبر تحت الماء ، وفى قوة السباحة . وكان يسافر فى الأجفان (المراكب) الحربية لحرب الروم ، فإذا كانت

الملاقاة ، واشتغل الناس بالقتال ، غاص تحت الماء ، وبيده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو ، فلا يشعرون بما حل بهم ، حتى يدهمهم الغرق . »

وأقام ابن بطوطة بهذه المدينة أربعين يوماً ، استطاع بعدها أن يجد مركباً تابعاً للروم ، ذهب به إلى شبه جزيرة القرم ، مودعاً أرض الأتراك ، ونزل ببلاد تابعة للمغول ، وهم جنس جديد اعتنق الدين الإسلامى، ووصف لنا ابن بطوطة حياته وعاداته .

٨

فى منازل المغول

إن مع العسر يسرا

كانت المرحلة الجديدة من رحلة ابن بطوطة فى بلاد المغول سجلا حافلا بعظمة الإسلام ، وأنه دين لا يستطيع إنسان أن ينال منه مهما كانت سطوته وجبروته . إذ سبق رحلة ابن بطوطة إلى ديار المغول أحداث جسام نزلت ببلاد المسلمين على أيدى أولئك الناس ، وبدا أنهم قوم عتاة لا يأبهون للنظم الحضارية أو أساليب المدنية . غير أن الإسلام سرعان ما غزا المغول وجعل منها أناساً لهم رسالتهم فى سلم الحضارة العالمية . وقد سجل ابن بطوطة ما شاهده من آثار إغارات المغول على بلاد المسلمين ، ثم ما طرأ عليهم من حياة جديدة فى ظل الإسلام .

بدأ ظهور المغول على مسرح الدولة الإسلامية قبل رحلة ابن بطوطة بقرن تقريباً . إذ حدث أن قبائل المغول التى كانت تسكن أصقاع منغوليا الشاسعة اتحدت تحت رياسة شخص يدعى جنكيزخان الملقب « بغضب الله » سنة ١١٨٩م . وكان

أفراد هذه القبائل مشهورين بالشجاعة ، ونساؤها يحاربن كما كما يحارب الرجال ، وسلاحهم الرئيسى القوس والنشاب ، ويأكلون جميع الدواب ، ولا يبقون على أحد فى حروبهم ، بل يذبحون النساء والأطفال على حد سواء ! وهم معتادون عبور الأنهار العميقة بالقرب ، أو بإمساك أذناب الخيول فيسبحون وراءها ، ولا يعرفون تعباً أو نصباً ، ويستقبلون الموت من غير خوف ولا وجل .

وقد استغل جنكيزخان هذه الصفات التى امتاز بها المغول وقام بزحف واسع استولى فيه على الصين سنة ١٢١٩ م . ثم أخذ يوجه حملاته على بلاد المسلمين غرباً حين قتل نائب خوارزم شاه بعض تجار أرسلهم جنكيز خان إلى بلاد ما وراء النهر بحجة أنهم جاءوا ليتسقطوا أخباره . فثار عندئذ جنكيزخان وزحف بجيشه الهائل على فرغانة .

وانسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قنن الجبال ، واكتسحت جنود الملك خوارزم شاه ، كما تكتسح السيول ما تصادفه من الحصى والرمال . وتحولت المدن الكبرى التى كانت مراكز للمدنية وأسواقاً للتجارة ، خراباً يباباً . فأصبحت بخارى ركاماً وأنقاضاً وكانت تشتهر برجال العلم والورع . وكذلك سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر تعرضت

للتخريب وقتل أهلها حتى إنه لم يبق من سكانها غير ٥٠٠٠ شخص يقصون أنباء المغول وأعمالهم المروعة على الناس .

وعاد جنكيزخان إلى وطنه بعد أن قوض معالم المدنية فى أواسط آسيا وفارس . وانقسمت إمبراطوريته أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة ، أخذ أحدهم الصين ، وآخر المنطقة الوسطى من إمبراطورية المغول ، على حين نال أكبر أبناء جنكيزخان الجزء الغربى من الإمبراطورية ، ولقب « خان القبيلة الذهبية » ، وغدت فارس فيما بعد من نصيب هولاكو .

وكان هولاكو صاحب الأعمال السيئة فى بغداد ، والمطيح بالخلافة العباسية من المشرق . فقد انتهز توتر العلاقات بينه وبين الخليفة العباسى ببغداد إذ ذاك وهو المستعصم وزحف على العاصمة سنة ٦٥٦ هـ . وحاصر المغول بغداد أربعين يوماً حصاراً لا هوادة فيه ، ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون المشرفة عليها ، ثم طفقوا يمطرونها بوابل من الحجارة حتى أحدثوا فى أسوارها فجوة كبيرة . وعندئذ أذعن الخليفة لطلب الصلح .

ولكن ما كاد يتم الصلح حتى أصدر هولاكو أمره المشئوم بنهب بغداد وذبح أهلها ، فقد خرج الشيوخ والنساء والأطفال من منازلهم حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون إلى الجنود بلهجة تفتت الأكباد أن يبقوا على حياتهم . ولكن

الغزاة لم يأبهوا لهذا التضرع والتوسل وأنزلوا بالأهالى كافة ألوان التعذيب .

وبعد أن استمرت هذه المذابح الدامية تعصف ببغداد أربعة أيام ، قضى هولاكو على الخليفة وأبنائه ، وأمست بغداد موطن العلم وعاصمة الثقافة الإسلامية خراباً يباباً . ويروى المؤلفون القدامى قصة هذا الخراب والتدمير بأسلوب مؤثر فياض . فيقول ابن الأثير « إن غارة المغول هى الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عفت الأيام والاليالى عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين » .

وعبر المغول نهر الفرات بعد تخريب بغداد ، وواصلوا زحفهم حتى وقف لهم عند « عين جالوت » بالشام السلطان بيبرس ملك مصر فيما بعد ، وأوقع بهم هزيمة فادحة ، وتعقبهم إلى ما وراء حلب ونظف الشام منهم سنة ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م .

وجاءت هذه الوقعة الكبرى حداً فاصلاً فى تاريخ الإسلام والمسلمين . إذ نهض الإسلام وأخذ يستعيد مجده التالد . فاستطاع بوساطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه . وكان أولئك الدعاة يتصفون بالصبر والشجاعة حتى كللت جهودهم بالنجاح . وكان بركة خان (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) أول من أسلم من أمراء المغول ، وهو رئيس القبيلة

الذهبية ، وحاكم القسم الغربى من إمبراطورية المغول ، الممتد من وسط آسيا إلى أقصى بلاد الروسيا الحالية .

وينسب إسلام بركة خان إلى تاجرين التقى بهما فى بخارى. فقد سألهما عن عقائد الإسلام ، واقتنع بشرحهما واعتنق هذا الدين ، ونشره بين رعاياه الذين أصبحوا غلاة متحمسين . فكان كل فارس فى جيشه يحمل سجادة للصلاة ليصلى عندما يأتى ميعاد الصلاة ، كما لم يكن فى جيشه شخص يتعاطى المسكرات . وقرب إليه مشاهير العلماء والمفسرين ورجال الحديث والفقهاء ، وعقد لهم المناظرات الدينية وحرص على مشاهدتها .

وقد قامت علاقات صداقة ومودة بين بركة خان والظاهر بيبرس سلطان المماليك فى مصر . إذ احتفى السلطان بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين ، وكان العداء قد دب بين هولاكو حاكم فارس المغولى وبركة خان ، ومع سلطان مصر كذلك ، مما أدى إلى تدعيم العلاقات بين مصر ومغول القبيلة الذهبية .

وهكذا حين يمم ابن بطوطة وجهه لزيارة مغول القبيلة الذهبية كان الإسلام قد انتشر بينهم ، وسجل قوة الإسلام فى استعادة

سالف مجده ، ومحاولة مدن المسلمين التابعة لمحمد أوزبك خان القبيلةالذهبية إذ ذاك النهوض من كبوتها .

أرض المغول

رست السفينة التى أقلت ابن بطوطة عبر البحر الأسود فى مرسى يدعى « الكرش » ، ثم انتقل إلى ثغر كافا ، وكان أكثر سكانه من أهل جنوة ، جعلوه من أهم مراكز التجارة لهم . ورحل عنها إلى مدينة القرم ، وكانت تابعة للسلطان محمد أوزبك ، خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية . وأكرم حاكم مدينة القرم المسمى تلكتمور وفادة ابن بطوطة ، ودعاه للركوب معه لزيارة السلطان محمد أوزبك بعاصمته . وكانت وسائل الانتقال بين مدن المغول أو البلاد التابعة لهم سهلة ميسورة ، وأهمها استخدام العجلات فى السفر . ووصف ابن بطوطة وصفاً شاملا العربات التى ركبها فى رحلته .

فذكر أنهم « يسمون العجلة « عربة » ، وهى عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ، ومنها ما يجره فرسان ، ومنها ما يجره أكثر من ذلك . وتجرها أيضاً البقر والجمال ، على حال العربة فى ثقلها أو خفتها ، والذى يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرها ، ويكون عليه سرج ، وفى يده

سوط يحركها للمشى ، وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد ، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق . وهى خفيفة الحمل ، وتكسى باللبد ، ويكون فيها طبقان (فتحات) مشبكة ، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ، ويقرأ أو يكتب وهو فى حال سيره . وهناك عربات خاصة تحمل المتاع والأزواد وعليها أقفال لحفظ ما بها . »

أعد ابن بطوطة لنفسه عربة على هذا الطراز ، كان يجرها جمال . وسارت القافلة عبر الطريق « كسير الحجاج فى درب الحجاز ، يرحلون بعد صلاة الصبح ، وينزلون ضحى ، ويرحلون بعد الظهر ، وينزلون عشيا . وإذا نزلوا حلوا الخيل والإبل والبقر عن العربات ، وسرحوها للرعى ليلا ونهاراً ، ولا يعانى أحد مشقة علف الدواب ، لأن المنطقة التى اجتازوها غنية بالنبات الصالح لغذاء الحيوانات . وكان الطريق آمناً ، لا يعترضه لصوص بسبب شدة أحكام المغول . فمن كان يضبط عنده فرس مسروق ، يكلف برده إلى صاحبه مع تسعة أمثاله ، فإن لم يقدر على ذلك أخذ أولاده عوضاً ، وإن لم يكن له أولاد يذبح كما تذبح الشاة .

ولما ابتعد الركب عن القرم واجه مستنقعاً كبيراً خاضت

فيه العربات يوماً كاملا . وكثر خوض الدواب والعربات فى الماء حتى اشتد وحله وزادت صعوبة اجتيازه . فأكرم الأمير ابن بطوطة غاية الإكرام ، حيث سمح له بأن يتقدم بعربته الركب حتى لا يعانى من متاعب الطريق . وأخيراً وصل الركب فى الطريق مدينة أزاق ، حيث استراح بها بعض الوقت قبل استئناف السفر .

وخرج الناس ورؤساء المدينة لاستقبال الأمير ، وبسطت له فرش من حرير ليمشى عليها ، فقدم الأمير على نفسه ابن بطوطة ، ودعاه لأن يسبقه فى المشى عليها ، ليبين للناس قدر هذا الضيف العظيم الذاهب إلى خان المغول . وانتهز ابن بطوطة فرصة الإقامة بهذه المدينة وأخذ فى مشاهدتها ودراسة أحوالها ، شأنه فى كل البلاد التى يقف بها فى رحلته .

* * *

شاهد ابن بطوطة بهذه المدينة كثرة الخيول ورخص أثمانها ، وأنها تنقل إلى بلاد الهند حيث تباع هناك . فذكر أن ما ينقل منها إلى الهند فى المرة الواحدة أكثر من ستة آلاف فرس ، ولكل تاجر فى هذا القطيع بين المائة والمائتين أو أكثر من ذلك . ويستأجر التاجر لكل خمسين من الفرس راعياً يقوم بالعناية عليها ، ويرعاها كالغنم . فيركب فرساً منها

وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها اقترب منه بالفرس الذى ركبه ، ورمى الحبل فى عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر . وذكر ابن بطوطة أن الهند تبتاع هذا النوع من الخيول لقوتها ومقدرتها على تحمل المشاق ، على حين تستورد خيول السباق من اليمن وعمان وفارس .

ثم استأنف الركب سيره حتى بلغ مدينة الماجر بالقوقاز ، حيث قابل بها ابن بطوطة تاجراً يهودياً من أهل الأندلس ، يتكلم العربية . فسأله ابن بطوطة عن بلاده وكيف جاء إلى هنا . فذكر له هذا التاجر أنه وصل إلى هنا براً ، وأن رحلته استغرقت أربعة شهور .

وعلى أربعة أيام من مدينة الماجر بلغ ابن بطوطة معسكر خان المغول ، وكان عبارة عن مدينة متنقلة فى موضع يقال له « بش دغ » ، ووصفها قائلا « رأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، فيها المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعد فى الهواء ، وهم يطبخون فى حال رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم ، فإذا بلغوا المنزل ، نزلوا البيوت عن العربات ، وجعلوها على الأرض ، وهى خفيفة المحمل . وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت . »

* * *

وتشرف ابن بطوطة بمقابلة خان المغول محمد أوزبك ، وكان على دين الإسلام ، ويعمل على نشر رايته فى البلاد التابعة لمدينة القسطنطينية . وشاهد عن كثب حياة هذا السلطان الخاصة ، وما فيها من مباهج . فذكر أنه يصطحب معه نساءه وكبار رجال دولته ، وتسمى زوجته بالخاتون ، ونسوته جميعاً بالخواتين . فإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن بعث إليها يعلمها بذلك ، فتتهيأ له . وكان من عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة ومعه نسوته لاستقبال رعاياه ، ودراسة أحوالهم . فتنصب له قبة مزينة بالذهب ، عبارة عن قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها مقعد من خشب يقعد السلطان عليه ، ويجلس حوله نسوته وأولاده ، ثم يحيط بهم كبار رجال الدولة . وبعد ذلك يسمح للناس بالدخول عليه للتحية ، ويظل المجلس منعقداً إلى بعد صلاة العصر ، حيث يعود كل شخص إلى مقره .

* * *

وأعجب ابن بطوطة بنظام الحياة التى سارت عليها زوجات السلطان . فكان موكب الخاتون أو الزوجة عبارة عن عربة عليها قبة مزينة بالذهب والفضة ، تجرها خيول مجللة بأثواب الحرير المذهب ، ويركب خادم العربة أحد الخيول ، على

حين تجلس الخاتون فى عربتها ، وعن يمينها امرأة من حاشيتها تسمى « أولو خاتون » أى الوزيرة ، وعن شمالها امرأة أخرى تسمى كجك خاتون أى الحاجبة ، وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات ، فائقات الجمال ، متناهيات الكمال ، ومن ورائها ثنتان منهن تستند إليهن ، وعلى رأس الخاتون تاج صغير محلى بالجواهر ، بأعلاه ريشة طائر ، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر . وبين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان ، قد لبسوا ثياب الحرير ، وبيد كل واحد منهم عمود ذهب .

على أن ابن بطوطة عمد إلى الذهاب إلى بلاد الهند ، التى بلغت شهرتها أقاصى بلاد المغول . فسار فى ركب تجارى مخترقاً وسط آسيا حتى دخل هذه البلاد الرائعة ، وبدأ سلسلة جديدة من مشاهداته .

٩
ابن بطوطة فى الهند

شعب جديد

عندما دخل ابن بطوطة بلاد الهند عادت به الذاكرة إلى تلك الفترة الأولى التى أخذ الإسلام يشق فيها طريقه إلى هذه الرقعة الحافلة بألوان المدنيات القديمة . فكانت الجهات التى بدأ بزيارتها أولى البقاع التى استولى عليها المسلمون حين أرسل الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق جيشاً تحت قيادة ابن عمه محمد بن القاسم سنة ٨٩ هـ لفتح السند .

ونجح محمد بن القاسم ابن عم الحجاج فى إخضاع السند وهى الوادى الأدنى ودلتا نهر السند . وكان ثغر الديبل (كراتشى الحالية) من المدن التى استولى عليها المسلمون ، وحطموا بها تمثالا لبوذا كان ارتفاعه يبلغ أربعين ذراعاً . واستولى القائد المسلم كذلك على البيرون ، ومكانها الآن حيدر آباد الحديثة ، ووصلت الفتوحات إلى مدينة الملتان فى جنوب البنجاب .

وكان فى مدينة الملتان مزارٌ مقدس للإله بوذا ، يدعى البد ، تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ، ويحج إليه أهل السند ، فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده . وكان سدنة هذا المزار أو القائمون على حراسته يلبسون الصنم جلداً أحمر لا يظهر منه إلا عينان عبارة عن جوهرتين كبيرتين ، وعلى رأسه إكليل ذهب ، والصنم متربع على سرير ، وذراعاه على ركبتيه .

وقد ظلت الفتوح الإسلامية بالسند غير مستقرة الأوضاع بعد عودة القائد المسلم ، حتى القرن العاشر الميلادى ، إذ بدأ «غزو» جديد فى عهد محمود الغزنوى سلطان الدولة الغزنوية التى قامت فى بلاد الأفغان واستقلت عن الخلافة العباسية . وكانت "غزنة" عاصمة هذه الدولة تقع فوق هضبة مرتفعة تشرف على سهول الهند الشمالية ، والتى يمكن الوصول إليها عن طريق وادى كابل الذى سلكه ابن بطوطة حين دخل الهند . وكان لهذا الموقع أثر كبير فى تشجيع محمود الغزنوى على القيام بحملات كبرى فى الهند فيما بين سنتى ١٠٠١ — ١٠٢٤ م ، خاض غمار سبع عشرة حملة على هذه البلاد .

وأدت حملات محمود الغزنوى إلى ضم البنجاب وحاضرته "لاهور" ، وكذلك الملتان وجزء من السند إلى بلاده . فتوطد

بذلك الإسلام فى بلاد البنجاب منذ ذلك الوقت بشكل قوى متين . وعاد محمود من غزواته محملا بغنائم وفيرة من معابد الهندوس ، وغدا فى نظر معاصريه محطم الأصنام ، وحامى حمى الإسلام الصحيح .

ومهدت بذلك حملات الغزنويين فى الهند الطريق إلى تطور حياة المسلمين فى الجهات التى استقروا بها . فغدت لهم إمارات بالهند ، تعلو وتنخفض حسب التقلبات السياسية ، وتستقل فى شئونها تارة كلما سنحت لها الظروف . وظهر من أولئك الحكام الذين استقلوا بكافة البلاد التى سكنها المسلمون فى شمال الهند حكام مدينة دهلى . وكانت هذه الحاضرة الجديدة مقصد أنظار ابن بطوطة ، وبدأ بذلك رحلته فى الهند .

مدينة دهلى

دخل ابن بطوطة مدينة دهلى فى فترة كان فيها السلطان غائباً خارجها ، فاستقبله حاجب الغرباء ويدعى الشريف « المازندرانى » ، واصطحبه إلى دار الضيافة . ووصف ابن بطوطة هذه الدار قائلا : « ولما وصلت إلى الدار التى أعدت لنزولى وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر ، وأوان

وسرير الرقاد . وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل ، يحمل السرير منها الرجل الواحد ، ولابد لكل أحد أن يستصحب السرير فى السفر ، يحمله غلامه على رأسه ، وهو أربع قوائم مخروطة ، يعرض عليها أربعة أعواد ، وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن ، فإذا نام الإنسان عليه لم يحتج إلى ما يرطبه به ، لأنه يعطى الرطوبة من ذاته . وجاءوا مع السرير بمضربيتين ومخدتين ولحاف ، كل ذلك من الحرير . وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحف وجوهاً بيضا تغشيها من كتان أو قطن ، فمتى توسخت غسلوا الوجوه المذكورة ، وبقى ما فى داخلها مصوناً . »

* * *

ونال ابن بطوطة فى دار الضيافة ما لا ومؤناً بقدر ما احتاج إليه ، ولكنه صمم على أن ينتهز فرصة غياب السلطان ، ويزور المدينة ويشاهد ما بها قبل التشرف بمقابلة السلطان . وكانت دهلى إذ ذاك مدينة كبيرة المساحة والعمران ، تنقسم إلى أربعة أقسام يحيط بها سور واحد . « والسور المحيط بمدينة دهلى لا يوجد له نظير ، عرض حائطه إحدى عشرة ذراعاً ، وفيه بيوت يسكنها حفاظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ويسمونها "الأنبارات" ومخازن للعدد . . . ويمشى فى داخل السور

الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها . وفيه طبقات مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء ، وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة ، وأعلاه بالآجر ، وأبراجه كثيرة متقاربة . »

وبخارج العاصمة حوض عظيم يشرب منه أهل المدينة ، وماؤه يجمع من ماء المطر ، وطوله نحو ميلين وعرضه نصف الطول . وعلى جانب الحوض أماكن لنزهات الأهالى . وهناك حوض آخر خاص للسلطان ، وعلى جوانبه مساكن أهل الطرب . ثم زار ابن بطوطة مسجد مدينة دهلى، وهو من أعظم الآثار الإسلامية بها . وكان من قبل معبداً وثنياً حول إلى مسجد بعد انتشار الإسلام بالهند، وحيطانه وسقفه من الحجارة البيضاء ، وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس ، مطروحان بالأرض ، قد ألصقا بالحجارة ، ويطأ عليهما كل داخل إلى المسجد أو خارج منه . واسترعى نظر ابن بطوطة بهذا المسجد صومعة فى الصحن الشمالى ، وكانت شديدة الارتفاع وصفها ابن بطوطة قائلا : « صعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة ، وعاينت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحطة ، وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار . »

مقابلة ابن بطوطة لسلطان دهلى

لاحظ ابن بطوطة استعداد مدينة دهلى لاستقبال السلطان عائداً من سفره ، فزينت الفيلة ، ووضع عليها قباب من الخشب مكسوة بالحرير ، ومعهن بعض الراقصات . وزينت حيطان الشارع الذى يمر به السلطان من باب المدينة إلى باب القصر بثياب الحرير . ولم يلبث أن تقدم موكب السلطان يمشى أمامه المشاة من عبيده ، وخلفهم فيلة يرمى من فوقها بالدنانير والدراهم ، فيلتقطها الناس ، كما وزعت عليهم أوان مملوءة بشراب ماء الورد .

* * *

أخذ ابن بطوطة يستعد لمقابلة السلطان ويسأل عن التقاليد الواجب اتباعها فى مثل هذه المناسبة . فعلم أنه لابد لكل قادم على هذا الملك أن يقدم هدية بين يديه حين المقابلة ، ويكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة . وأدى ذلك إلى أن صار التجار ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا ويجهزونه بما يريد أن يهديه إليه ، أو يتصرف فى المال بنفسه وفق ما يريد من شراء الهدايا . فإذا

تمت المقابلة ونال الزائر عطاء السلطان الوفير سدد ديونه واحتفظ بالباقى لنفسه وكان فى ذلك ربح وفيرٌ للتجار . ولذا سلك ابن بطوطة تلك السبيل منذ دخوله بلاد السند ، فاشترى من تاجر ثلاثين فرساً وجملا ، وكذلك بعض المماليك ليقدمها للسلطان .

وفى الفترة التى أعد فيها ابن بطوطة هداياه للسلطان ، أخذ يسأل عن طباعه وأخلاقه ، وسيرته وطريقة حياته ليستطيع أن يكسب رضاه بالابتعاد عما يكره ، وأداء ما يحب . وكان السلطان الجالس على عرش دهلى إذ ذاك محمد شاه ، عرف ابن بطوطة الشيء الكثير عن حياته ، فضلا عن دراسته لهذا السلطان بنفسه فيما بعد . فعلم ابن بطوطة أن هذا الملك أحب الناس فى إسداء العطايا وإراقة الدماء كذلك ، إذ سرت عند الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش. وهو يمتاز إلى جانب ذلك بإنعامه الجزيل على الغرباء ، وتفضيلهم على أهل الهند وإيثارهم وإجزال الإحسان لهم ، وهو يسبغ عليهم الإنعام ، ويوليهم أرفع المناصب ، وبلغ من إحسانه إليهم أن سماهم الأعزة ، ومنع من أن يدعوا بالغرباء، لأن الإنسان إذا دعى غريباً «انكسر خاطره وتغير حاله» .

وفى رابع شوال حدد ميعاد مقابلة ابن بطوطة للسلطان فى

قصره . فخرج ابن بطوطة إلى القصر ومعه هديته . وحين بلغ باب القصر شاهد وفوداً كثيرة منتظرة ومعها هداياها . ثم بدأوا فى الدخول على السلطان كل حسب مرتبته ، وأخيراً جاء دور ابن بطوطة . فدخل القصر ووصف ردهاته وطريقة جلوس السلطان لاستقبال الزائرين . فذكر ابن بطوطة أن للقصر أبواباً كثيرة ، أما الباب الأول عليه جملة من الرجال معهم الأبواق والطبول يضربونها إذا جاء أمير أو كبير مرددين نغم جاء فلان ، جاء فلان . وكذلك أيضاً فى البابين الثانى والثالث . وبين هذين البابين الأخيرين دهليز كبير به غرف للحفاظ وحرس المدخل . وعند الباب الثالث يجلس كتبة لا يسمحون لأحد باجتيازه إلا إذا كان يحمل موافقة السلطان . ويكتبون الساعة التى حضر فيها الزائر ومن معه .

وعندما دخل ابن بطوطة من الباب الثالث رأى ساحة فسيحة بها عمد كثيرة من الخشب ، لها سقف خشب كذلك ، منقوش أبدع نقش ، والسلطان جالس فى صدر هذه القاعة ومعه حاشيته . « وجلوسه على مسطبة مفروشة بالبياض ، فوقها مرتبة ، ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة .، وعن يمينه متكأ ، وعن يساره مثل ذلك . وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد فى الصلاة ، وهو جلوس أهل الهند كلهم . فإذا جلس وقف

أمامه الوزير ، ووقف الكتاب خلف الوزير ، وخلفهم الحجاب . . . ثم يقف على رأس السلطان رجل بيده المذبة يشرد بها الذباب. »

وقد سبق ابن بطوطة فى مقابلة السلطان عمال الدولة وشاهد عادتهم فى تقديم الهدايا له . إذ يتقدم العمال بعض الخدم حاملين الهدايا أمام الناس ، وبحيث يراها السلطان . ثم يتقدم كل موظف من السلطان ويصافحه ، وإن كان ممن يستحق التعظيم عانقه السلطان ، ويطلب بعض هديته ، ويقلبها بيده ويظهر استحسانه بها .

ولما جاء دور ابن بطوطة أخذ السلطان بيده وصافحه وأحسن له القول ، وقال له بالفارسية « حلت البركة ، قدومك مبارك ، أعطيك من الإنعام ما يسمع به أهل بلادك » . ثم سأله عن بلاده وأجابه ابن بطوطة عما سأل . وبذلك انتهى الاستقبال الأول الذى حظى به ابن بطوطة لدى سلطان دهلى .

ابن بطوطة يعين قاضياً على دهلى

بعد خروج ابن بطوطة من حضرة السلطان جاءه مندوب من قبل السلطان يسأله عن نوع العمل الذى يرغب الاشتغال به

فى الهند . وكان مع ابن بطوطة فى ذلك الوقت بعض الأشخاص الذين استقبلهم السلطان ، ومكثوا فى انتظار إنعاماته . فقال لهم مبعوث السلطان : « يقول لكم السلطان من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك . » فسكت الجميع لأنهم كانوا يطمعون فقط فى الحصول على عطاء السلطان والعودة إلى بلادهم . عندئذ خاطب مندوب السلطان ابن بطوطة باللغة العربية مستفهماً عن نوع العمل الذى يريده . فأجابه ابن بطوطة قائلا : « أما الوزارة والكتابة فليست شغلى ، وأما القضاء والمشيخة ، فشغلى وشغل آبائى . »

ولما بلغ السلطان ما ذكره ابن بطوطة استدعاه لمقابلته . وبعد أن سلم ابن بطوطة على السلطان قال له كبير الأمناء : « قد جعلك السلطان قاضى دار الملك فى دهلى ، وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار فى السنة . . . وأمر لك باثنى عشر ألفاً نقداً ، تأخذها من الخزانة غداً إن شاء الله ، وأعطاك فرساً بسرجه وبجامه » ثم أخذ بعد ذلك بيد ابن بطوطة وقدمه للسلطان ، الذى قال له « لا تحسب قضاء دهلى من أصغر الأشغال ، هو أكبر الأشغال عندنا . » وعين معه السلطان بعض المساعدين ؛ ثم تلطف فى القول مع ابن بطوطة ومن معه قائلا : « أنتم

شرفتمونا بقدومكم ، فما نقدر على مكافأتكم ، فالكبير منكم مقام والدى ، والكهل مقام أخى ، والصغير مقام ولدى ، وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم إياها . » فشكره ابن بطوطة وانصرف .

نساء الهندوس اللائى يحرقن أنفسهن

لم تصرف حياة الوظيفة ابن بطوطة عن التجوال فى بلاد الهند ومشاهدة عاداتها وتقاليدها ، وإرضاء ما طبعت عليه نفسه من حب للاستطلاع . واسترعى نظره فى أثناء رحلاته بالهند مشاهدة نساء الهندوس يحرقن أنفسهن بعد وفاة أزواجهن ، فقال « رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ، ومعهم بعض أصحابنا ، فسألتهم ما الخبر ، فأخبرونى أن كافراً من الهنود مات ، وأججت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه ، ولما احترقا جاء أصحابى وأخبرونى أنها عانقت الميت حتى احترقت معه .

على أن ابن بطوطة لم يلبث أن شاهد بنفسه أمثال هذه الحوادث ، فقال « وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة ، والناس يتبعونها من مسلم وكافر ،

والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة ، وهم كبراء الهنود ، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان فى إحراقها ، فيأذن لهم ، فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة أنى كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار ، وأميرها مسلم ، وعلى مقربة منها الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ، وقع بينهم قتال شديد ، مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر ، وكان لثلاث منهم ثلاث زوجات ، فاتفقن على إحراق أنفسهن .

وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر متروك إليها غير واجب ، ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة ، لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها .

ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائى ذكرناهن على إحراق أنفسهن ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب ، وأكل وشرب ، كأنهن يودعن الدنيا ، ويأتى إليهن النساء من كل جهة . وفى صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس ، فركبته وهى متزينة متعطرة ، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ،

وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق ، وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغى السلام إلى أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى ، وهى تقول : نعم وتضحك إليهم . وركبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق . فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال ، وبين أشجاره أربع قباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتزاحمت الأشجار ، فلا تتخللها الشمس ، فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم .

ولما وصلت النسوة إلى تلك القباب ، نزلن إلى الصهريج ، وانغمسن فيه ، وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به ، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها ، وبعضه على رأسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض ، وصب عليها زيت زاد فى إشعالها . وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار ، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجىء المرأة ، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها ، فرأيت إحداهن لما

وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف وقالت لهم ، « أبالنار تخوفوننى ؟ ، أنا أعلم أنها نار محرقة » ، ثم جمعت يديها على رأسها ، احتراماً للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطبال والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك ، وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج . ولما رأيت ذلك كدت أسقط من فرسى ، لولا أصحابى تداركونى بالماء ، فغسلوا وجهى وانصرفت »

نهر الكنج المقدس ورماد الجثث المحرقة

وأشاد ابن بطوطة بتقديس الهنود لنهر الكنج : « وهو الذى إليه يحجون ، وفيه يرمى برماد الذين يحرقون ، وهم يقولون إنه من الجنة ، وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره ، لا تظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شىء من أمور الدنيا ، أو لقلة مال ، وإنما قصدى التقرب إلى « كساى » ، اسم الله عز وجل بلسانهم ، ثم يغرق نفسه ، فإذا مات ، أخرجوه وأحرقوه ، ورموا برماده فى البحر المذكور . »

السحرة ببلاد الهند

وأعجب ابن بطوطة ببراعة السحرة الذين يدعون « الجوكية » وتحدث عنهم قائلا : « وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب ، منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب ، وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض ، وتبنى عليهم ، فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء ، ويقيم بها الشهور . . . وهم يُركِّبون حبوباً، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة أو أشهر، فلا يحتاج فى تلك المدة إلى طعام ولا شراب ، ويخبرون بأمور مغيبة . والسلطان يعظمهم ويجالسهم ، ومنهم من يقتصر فى أكله على البقل ، ومنهم من لا يأكل اللحم . . . والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ، ولا حاجة لهم فى الدنيا وزينتها . . . ويقولون للمرأة من السحرة « كفتار » .

وذكر ابن بطوطة بعض نوادر هؤلاء السحرة ، ومنها أن امرأة منهم أى كفتار ، اتهمت بقتل صبى بأن أكلت قلبه . وأتى الناس بالصبى الميت والمرأة إلى منزل ابن بطوطة ، باعتباره القاضى . لكنه أمرهم بالذهاب إلى نائب السلطان ليختبر أمر المرأة بنفسه . فأمر نائب السلطان باختبارها بأن ملأوا أربع

جرات بالماء ، وبطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها فى النهر فلم تغرق ، فعلم أنها كفتار ، إذ لو لم تكن كفتار لغاصت فى الماء . فأمر بإحراقها ، وجاء أهل البلد رجالا ونساء ، فأخذوا رمادها ، وزعموا أنه من تبخر به أمن فى تلك السنة من سحر أية كفتار .

وكذلك وصف ابن بطوطة حفلا عرض فيه بعض أولئك السحرة أعمالهم ، فقال : « بعث إلى السلطان يوماً ، وأنا عنده بالحضرة ، فدخلت عليه ، وهو فى خلوة ، وعنده بعض خواصه ، ورجلان من هؤلاء الجوكية . وهم يلتحفون بالملاحف ، ويغطون رؤوسهم ، لأنهم ينتفونها ، كما ينتف الناس آباطهم . فأمرنى بالجلوس ، فجلست ، فقال لهما ، « إن هذا العزيز من بلاد بعيدة ، فأرياه ما لم يره ؟ ، فقالا ، نعم . فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعاً ، فعجبت منه ، وأدركنى الوهم ، فسقطت إلى الأرض ، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت ، وهو على حاله متربع . فأخذ صاحبه نعلا من شكارة كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلا قليلا ، حتى جلس معنا . »

على أن ابن بطوطة أبى البقاء فى الهند كثيراً بعد مشاهداته السالفة ، ولا سيما أن العلاقات ساءت بينه وبين سلطان دهلى . فقرر مغادرة البلاد ، وقصد زيارة جزر « الملديف » ، القريبة من الهند ، لما لها من شهرة عالية .

١٠

جزر الهدوء والسلام
جزائر ذيبة المهل

سمع ابن بطوطة أن بالقرب منه جزراً تسمى جزائر « ذيبة المَهَل » ؛ وهى جزائر المالديف الحالية ، تشتهر بالجمال الطبيعى الساحر والهدوء الشامل والنساء الجميلات . فصمم على زيارتها ولا سيما أنها لاتبعد عن ميناء قاليقوط كثيراً . وتصادف أنه وجد بهذا الميناء مركباً متجهاً إلى عاصمة هذه الجزائر ، فاتفق مع صاحبه على حمله إلى هذه الجزيرة . ولما اقتربت السفينة من هذه الجزر استولى العجب على ابن بطوطة ، وذكر أنها إحدى عجائب الدنيا ، فمجموعة هذه الجزر « مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب ، لا تدخل المراكب إلا منه . وإذا وصل المركب إلى المدخل فلابدّ له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر ، وهى من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى ، فإن أخطأ المركب فى سيره لم يمكنه دخولها وحمله الريح إلى خارجها . »

شجرة النارجيل

ولم يكن هذا الشجر الكثير الذى تكتظ به جزر ذيبة المهل غير شجر النارجيل ، وأسهب ابن بطوطة فى وصفه لما له من أهمية قصوى فى الحياة الاقتصادية لهذه الجزر . فذكر أن هذا الشجر يشبه النخل لا فرق بينهما ، إلا أن هذه تثمر جوزاً والنخل تثمر بلحاً . وجوز النارجيل يشبه رأس ابن آدم ، لأن فيه شبه العينين والفم ، وعليها شبه الشعر . وهم يصنعون منه حبالا يخيطون بها المراكب عوضاً عن المسامير من الحديد ويصنع هذه الحبال نساء هذه الجزر ، وتخاط بها مراكب الهند . وذلك لأن البحر ،فى تلك المناطق كثير الحجارة ، فإن كان المركب مسمراً بمسامير الحديد وصدم بالحجارة انكسر ، وإذا كان مخيطاً بالحبال ساعدت الرطوبة على تقليل حدة الاصطدام .

وثمار هذا الشجر يكون أخضر فى أول الأمر ، وإذا قطع بالسكين منه قطعة وفتح رأس الجوزة سال منها ماء شديد الحلاوة . أما ما فى داخل الجوزة فطعمه كطعم البيضة إذا شويت ولم يتم نضجها تماماً ، وقد أحب ابن بطوطة هذا النوع من الطعام وأقبل عليه طيلة العام ونصف العام الذى قضاها فى هذه الجزر .

وإلى جانب ذلك كان يصنع من هذا الجوز الزيت والحليب والعسل . فأما كيفية صناعة العسل فهو أن يصعد عمال مخصوصون إلى النخلة صباحاً ومساء ويأخذون ماء الجوز فى قدور خاصة ثم يغلى هذا الماء حتى يصير عسلا . أما صنع الحليب فيقوم به النساء اللائى يجلسن فوق كراسى خاصة ، وبيد كل منهم عصاً فى أحد طرفيها حديدة ، فيفتحون فى الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ، ويجرشون ما فى باطن الجوزة ، وكل ما ينزل منها يجمع فى صحفة حتى لا يبقى فى داخل الجوزة شىء ، ثم يخلط بالماء ويقلب حتى يصير كلون الحليب بياضاً وطعماً ، أما الزيت فيصنع من الجوز بعد تمام نضجه ، إذ يزيلون قشره ، ويقطعونه قطعاً ، ويجعل فى الشمس ، فإذا ذبل طبخ فى القدور ، واستخرج زيته الذى يستخدم فى الطبخ .

إكرام جديد

وصلت السفينة التى كانت تقل ابن بطوطة إلى إحدى جزر « ذيبة المهل » وكانت تدعى كنلوس . ولاحظ ابن بطوطة أن سكانها يدينون بالدين الإسلامى شأن سائر الجزر الأخرى ،

وذكر أن الإسلام انتشر فيها على يد رجل مغربى وصل إليها . وقد لقى ابن بطوطة من فقهاء هذه الجزيرة كل كرم وحفاوة .

ثم تابع ابن بطوطة رحلته حتى بلغ جزيرة المهل عاصمة الجزر بعد عشرة أيام من وصوله جزيرة كنلوس . وكان قد أخفى شخصيته ، وأنه من الفقهاء وممن سبق له الاشتغال بالقضاء لدى سلطان دهلى ، غير أن بعض الفضوليين كتبوا إلى السلطات فى هذه الجزيرة بحقيقة أمره . فما إن وطئ أرض جزيرة المهل حتى بادرت السلطات إلى الاحتفاء به . وكان يتصرف فى شئون هذه الجزر امرأة تدعى خديجة آل إليها السلطان بعد أن انقرض جميع الذكور من سلالة بيتها . وكانت متزوجة من أحد وزراء دولتها وإليه آلت مقاليد الأمور .

وكان قصر السلطانة خديجة معداً لاستقبال ابن بطوطة ، لأن السلطات رأت أن تستخدمه فى تولى منصب القضاء . وجهد ابن بطوطة فى إصلاح بعض العادات المستهجنة فى هذه الجزر ، وكان أهم هذه الأعمال القضاء على بقاء المرأة المطلقة فى بيت زوجها السابق حتى تتزوج غيره . وقد كان اشتغال ابن بطوطة بالقضاء عاملا حفزه على دراسة النواحى الاجتماعية فى هذه الجزر ، حتى يستطيع الفصل فيما يعرض له من شئون . وكان أهم شىء استرعى نظره هو طبيعة النساء فى

هذه الجزر ، وعلاقتهن بالرجال ، وأن الحياة بينهم تسودها المودة والهدوء والسلام .

الطمأنينة والنساء

أعجب ابن بطوطة بما يسود أهل هذه الجزر من هدوء ، وما هم عليه من صلاح وتقى ، إذ هم آمنون من شر إغارات القراصنة ، ولا يجرؤ أحد على إيقاع الأذى بهم ، لما شاع عنهم من أنهم أناس يتقبل الله دعاءهم وينتقم لهم من المعتدين « فلا تطرقهم لصوص الهند ، ولا تذعرهم ، لأنهم جربوا أن من أخذ منهم شيئاً أصابته مصيبة عاجلة ، وإذا جاءت سفن العدو إلى ناحيتهم لم يعرضوا لأحد منهم بسوء ، وإن أخذ أحد منهم شيئاً ، ولو ليمونة ، عاقبه أميرهم ، وضربه الضرب المبرح خوفاً من عاقبة ذلك ، ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال ، لضعف بنيتهم . »

وانصرف سكان هذه الجزر إلى العناية بأنفسهم ومظهرهم ، فأكثرهم يغتسل مرتين فى اليوم تنظفاً من شدة الحر وكثرة العرق . ويكثرون من الأدهان العطرية ، فكان من عادتهم كل صباح أن تأتى المرأة إلى زوجها أو ابنها ومعها المكحلة وماء الورد

والعطور . فيكحل الرجل عينيه ، ويمسح نفسه بماء الورد والعطور ، مما جعل بشرتهم مصقولة . ولباسهم الفوط ، فهم يشدون الفوطة منها على أوساطهم بدلا من السراويل ، ويضعون على ظهورهم شيئاً أشبه بالحرام ، وبعضهم يجعل على رأسه عمامة أو منديلا صغيراً .

مظهر النساء

غير أن حالة النساء فى هذه الجزر استرعت نظر ابن بطوطة أكثر من الرجال . إذ شاهدهن يسرن دون غطاء على رؤوسهن ، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة . ولا يلبسن إلا فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل ، أما سائر أجسادهن فتبقى مكشوفة ، ثم يسرن على هذا النحو فى الأسواق وغيرها . وقد جهد ابن بطوطة فيما بعد حين ولى منصب القضاء فى هذه الجزر أن يقضى على هذا العادة المتفشية بين النساء ، وأمرهن بارتداء ملابس كاملة ، ولكن ذهبت جهوده أدراج الرياح .

وإلى جانب ذلك لاحظ ابن بطوطة مغالاة النساء فى استعمال الحلى ، فكن يكثرن من لبس الأساور حتى إن

المرأة منهن تجعل فى ذراعيها من الأساور ما يملأ بين الكوع والمرفق . وكانت معظم هذه الأساور من الفضة ، إذ اختص نساء السلطان وأقاربه باستخدام الأساور من الذهب . وفضلا عن ذلك كن يضعن الخلاخيل فى أرجلهن وقلائد الذهب على صدورهن .

وانفردت عامة النسوة فى هذه الجزر بتقليد كان موضع دهشة ابن بطوطة ، فكن يؤجرن أنفسهن للخدمة بمنازل الأثرياء مقابل عدد معين من الدنانير ، وعلى مستأجرهن الإنفاق عليهن ، دون أن تجد النسوة عيباً فى ذلك . فكان يوجد فى دار الرجل الغنى عشرة أو عشرون امرأة ، يقمن بأعمال الخدمة ، وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته . وإذا أرادت إحداهن الخروج من دار إلى دار أخرى ، أعطاها رب البيت الذى تركت خدمته ما تستحقه من الدنانير ، وتدعها عند صاحب المنزل الجديد الذى التحقت بخدمته .

الزواج بالنساء

وكان الزواج بأولئك النسوة من أهم الملاحظات التى أسهب ابن بطوطة فى الحديث عنها . فكان الزواج بهن سهلا ميسوراً لقلة الصداق ، فضلا عما اشتهر به أولئك النساء من حسن

العشرة . فإذا قدمت مركب إلى هذه الجزر تزوج ركابها بنساء الجزيرة التى يلقون عندها مرساهم .

وكان الزواج يتم فى أسرع وقت ، إذ كان أهل الجزيرة يخرجون إلى الشاطئ لاستقبال السفينة ويعرضون خدماتهم على ركابها . ثم يعودون إلى منازلهم حاملين أمتعة النزلاء ، الذين قبلوا النزول عندهم ، وبعد ذلك يساعدون الركاب على الزواج بمن يشاءون من النساء ، أى أن ذلك عبارة عن نوع من زواج المتعة . وقال ابن بطوطة عن هذا الزواج وما به من بهجة : « ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة من أولئك النساء ، ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هى تأتيه بالطعام ، وترفعه من بين يده ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء ، وتضم رجليه عند النوم . ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معى بعضهن بعد محاولة ، وبعضهن لم تأكل معى ، ولا استطعت أن أراها تأكل ، ولا نفعتنى حيلة فى ذلك . »

ولم يكن نساء هذه الجزر يخرجن مع أزواجهن حين يأتى ميعاد عودتهم إلى بلادهم ، إذ كانت عادة أولئك النساء ألا يغادرن بلادهن أبداً ، ويستلزم ذلك طلاقهن ، راضين فى مقابل ذلك بالقليل من النفقة .

زواج ابن بطوطة

وكانت قصة زواج ابن بطوطة فى أثناء إقامته بهذه الجزر من أطرف الأحداث التى تصور الحياة الاجتماعية بها تصويراً شائقاً . فمنذ حط رحاله فى جزيرة ذيبة المهل وهو موضع حفاوة أحد وزرائها ويدعى سليمان . إذ منحه هذا الوزير بستاناً ، وبعث له فى اليوم التالى لهذه المنحة بجارية اسمها « قل ستان » أى « زهرة البستان » ، وكانت تعرف اللسان الفارسى ، مما أعجب ابن بطوطة كثيراً ، لأنه كان يجيد هذه اللغة ، ويفضل التفاهم بها على لغة أهل هذه الجزر المحلية . ولم يقف كرم الوزير عند هذا الحد ، وإنما بعث إليه حلياً وثياباً فاخرة .

ولكن ابن بطوطة سرعان ما فهم حقيقة أمر هذا الكرم والإغداق . إذ بعث إليه الوزير رسولا يعرض عليه أن يزوجه ابنته . وقد أبى ابن بطوطة أن يتزوج من ابنة الوزير ، وتطير من ذلك ، حيث توفى رجلان تقدما للزواج بها قبل ليلة الزفاف . وأخذ الاضطراب والقلق يعملان فى نفس ابن بطوطة حتى أصابته الحمى ، وعزم على الرحيل . ولما بلغ الوزير ذلك

بعث يطلب من ابن بطوطة رد جميع الهدايا والمال الذى حصل عليه منه . وبعث إليه رسولا ينصحه سراً بالإقامة وعدم مغادرة الجزيرة . وأدرك ابن بطوطة ألا مناص من البقاء وفضل أن يمكث بالجزيرة برغبته حتى لا يضطر إلى الإقامة بها مكرهاً ، وقبل الزواج من ابنة الوزير على مضض .

وأخذ الوزير بعد ذلك يستعد للاحتفال بعقد القران ، ونصب سرداقاً فخماً يوم عقد القران . ولكن حدث أمر غريب بعد أن اجتمع سائر المدعوين ، إذ لم يحضر الوزير إلى السرادق ، وطال الانتظار بالحاضرين . وهنا همس أحد خاصة الوزير فى أذن ابن بطوطة ذاكراً له أن ابنة الوزير رفضت الزواج منه ، وأن الوزير يعرض عليه إنقاذاً للموقف أن يتزوج بامرأة جميله من نساء القصر . فقبل ابن بطوطة ، ولا سيما أنه كان كارهاً بدوره الزواج بابنة الوزير وقد دفع الوزير الصداق وتم عقد القران . وذكر ابن بطوطة رأيه فى هذه الزيجة المفاجئة قائلا : « ورفعت (أى المرأة التى قبل الزواج بها) إلى بعد أيام ، فكانت من خيار النساء . وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير . »

دخول ابن بطوطة فى خدمة الحكومة

بعد أن تم زواج ابن بطوطة بهذه المرأة السالفة حمله الوزير على تقلد منصب القضاء فى جزيرة ذيبة المهل . وكان السبب فى ذلك رغبة السلطات فى الاستفادة من علم ابن بطوطة ، وتفقهه فى الدين . إذ حدث أن اعترض ابن بطوطة على القاضى بهذه الجزيرة لأخذه العشر من قيمة التركات التى يقسمها على أصحابها ، وذكر أن الشرع يبيح له فقط أخذ أجر معلوم بالاتفاق مع الورثة نظير تأديته مهمته . ولذا عزلت السلطات هذا القاضى ، وعينت مكانه ابن بطوطة .

وسجل ابن بطوطة ما قام به من أعمال أثناء توليه منصب القضاء قائلا : « أول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات فى ديار المطلقين ، وكانت إحداهن لا تزال فى دار المطلق حتى تتزوج غيره ، فحسمت علة ذلك ، وأتى إلى بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك ، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق ، وأخرجت النساء عنهم . ثم اشتددت فى إقامة الصلوات ، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق إثر صلاة الجمعة ، فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته . وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله ، وكتبت إلى جميع الجزائر

بنحو ذلك . وجهدت أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك . »

وكان منصب القاضى يتيح لابن بطوطة إحداث ما يشاء من إصلاحات اجتماعية ، « إذ أمره نافذ كأمر السلطان وأشد ، ويجلس على بساط فى الدار ، وله ثلاثة جزائر يأخذ مجباها لنفسه . » ولذا دأب ابن بطوطة على الاشتراك فى سائر مظاهر الحياة الاجتماعية بهذه الجزر والعمل على إزالة ما بها من شوائب ، وإقرار ما بها من محاسن . وكان من الأمور التى أقرها وأعجب بها الاحتفال بالأعياد .

شاهد ابن بطوطة احتفال سكان جزيرة ذيبة المهل بأحد أعياد الفطر ، واشتراك رجال الحكومة معهم . ففى صبيحة يوم العيد خرج الوزير من داره إلى المصلى ، وجهد كل من الأمراء الذين تقع منازلهم على طريق الوزير فى تزيين دورهم . فغرسوا أمام منازلهم أشجار النارجيل الصغيرة ، ومدوا من شجرة إلى أخرى شرائط ، علقوا فيها الجوز الأخضر . ووقف صاحب كل دار أمام بابه ، وحين يمر الوزير يرمى على قدميه ثوباً من الحرير أو القطن ، فيأخذها عبيد الوزير .

وكان موكب الوزير يسير وسط هذه المظاهر الرائعة ، فيتقدم الوزير الموكب ماشياً على قدميه ، وعليه فرجية مصرية ، وجميع الناس سواه حفاة ، والأبواق والأطبال بين يديه ،

والعساكر أمامه وخلفه ، وجميعهم يكبرون ، وبعد الصلاة عاد الموكب مرة أخرى إلى دار الوزير وانصرف سائر الناس .

مغادرة جزائر المهل

كان اشتغال ابن بطوطة بالقضاء سبباً فى إثارة كراهية كثير من الناس له ، وأخذت عوامل الدس والمؤامرات تعمل عملها لإفساد العلاقات بينه وبين السلطات الرئيسية بالجزيرة . ونجحت الدسائس فى إيقاع الوحشة والفرقة بين ابن بطوطة وأحد الوزراء ويدعى عبد الله بن محمد الحضرمى ، وجاءت شدة الأحكام القضائية التى أصدرها ابن بطوطة وقسوتها عاملا مباشراً فى إيجاد صراع سافر بينهما .

بدأ ذلك العداء حين اشتكى بعض الناس من الوزير ، وأنه مدين لهم ببعض الأموال ، ويطلبون استردادها . إذ تعمد ابن بطوطة إهانة الوزير الذى دأب على إغفال أمره وتأليب الناس عليه ، وروى خطته قائلا : « وكانت عادتى إذا بعثت عن خصم من الخصوم أبعث له قطعة كاغد مكتوبة ، فعندما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعى وإلا عاقبته . فبعثت إليه على العادة ، فأغضبه ذلك ، وحقدها لى ، وأضمر عدواتى ، ووكل من يتكلم عنه ، وبلغنى عنه كلام قبيح . »

وتابع ابن بطوطة بعد ذلك امتهان شأن الوزير وتلمس زلاته . فأمر الناس ألا يقدموا له التحية ، وإلا وقع عليهم العقاب . ثم انتهز فرصة رجاء من الوزير للتدخل فى قضية من القضايا وحط من قدر الوزير علانية . إذ قبض على غلام بتهمة ارتكاب جريمة زنا مع إحدى نساء القصر ، وأرسل الوزير يطلب من ابن بطوطة إطلاق سراح الشاب . فانتهز ابن بطوطة ذلك وأمر بمضاعفة عقاب الشاب ، وضربه بقضبان الخيزران التى كانت أشد وقعاً من السياط ، وأمر أن يطاف به فى أنحاء الجزيرة للتشهير به ، ووضع حبل فى عنقه .

ولما علم الوزير بذلك استشاط غضباً ، وجمع الوزراء الأخر والعسكر ، وبعث يستدعى ابن بطوطة . فجاء ابن بطوطة إلى هذا المجلس ولم يقدم التحية للوزير وقال للحاضرين « اشهدوا على أنى قد عزلت نفسى عن القضاء لعجزى عنه . » ثم أغلظ ابن بطوطة فى القول للوزير ، وأعلن أنه سيغادر البلاد .

طلق ابن بطوطة نساءه ، بعد أن طلق الحياة العامة بهذه الجزر ، وعول على متابعة الارتحال والتجوال ، وقد وفق فى الحصول على مركب كان متجهاً إلى جزيرة سيلان . فأقبل على القيام بهذه الرحلة الجديدة ، ومشاهدة هذه الجزيرة التى ارتبط بها أقدم القصص عن آدم أب البشر .

١١
مهبط آدم

اقتربت السفينة التى أقلت ابن بطوطة من جزيرة سيلان ، وطلع عليهم جبلها من بعيد شاهقاً فى الفضاء كأنه عمود دخان . وما أن ألقت السفينة مرساها حتى توجه ابن بطوطة إلى سلطان الجزيرة يلتمس منه الإذن بمشاهدة آثار آدم ، وإشباع غريزة حب الاستطلاع عنده .

وروى ابن بطوطة ما دار بينه وبين سلطان جزيرة سيلان وذهابه لمشاهدة آثارها قائلا : « فقلت للسلطان : ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم عليه السلام ، وهم يسمونه (بابا) ، ويسمون حواء (ماما) . فقال : هذا هين ، نبعث معك من يوصلك . . . وبعث معى أربعة من الجوكية (رجال يحترفون الشعوذة) ، الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه ، وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد ، وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير . »

« ولما صعدنا جبل سرنديب كنا نرى السحاب أسفل منا ، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله ، وفيه كثير من الأشجار التى لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة والورد الأحمر . . . وفى الجبل طريقان إلى القدم ، أحدهما يعرف بطريق (بابا) ، والآخر بطريق (ماما) ، يعنون آدم وحواء عليهما السلام . فأما طريق ماما فطريق سهل ، عليه يرجع الزوار إذا رجعوا ، ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر ، وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى ، . . . ونحت الأولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا فيها السلاسل ليتمسك بها من يصعده ، وهى عشر سلاسل ، . . . وفى أعلى الجبل يوجد القدم .

وأثر القدم الكريمة (قدم آدم) فى صخرة سوداء مرتفعة ، بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً ، وطولها أحد عشر شبراً . وأتى إليها أهل الصين قديماً ، فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه ، وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد . وفى الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة ، يجعل الزوار فيها الذهب واليواقيت والجواهر ، فإذا وصل الفقراء إليها تسابقوا فى أخذها .

وبعد أن أتم ابن بطوطة مشاهدة الآثار عاد بطريق ماما ، وعول على مشاهدة بعض الآثار الأخرى القريبة . فمرَّ بمدينة دِينَوَر التى بها صنم يعرف باسم المدينة ، موضوع « فى كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ، ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن... والصنم من ذهب على قدر الآدمى ، وفى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان . » .

القرود

وشاهد ابن بطوطة فى أثناء طوافه بالمدن الهامة بجبل سرنديب كثرة القرود ، وذكر أنها سود الألوان ؛ ولذكورها لحى كما هى للآدميين . وعلم من دراسة أحوالها أن لهذه القرود مقدماً تتبعه كأنه سلطان ، يشد على رأسه عصابة من أوراق الأشجار ، ويتوكأ على عصا ، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصى بأيديها ، وأنه إذا جلس القرد الرئيس تقف القرود الأربعة على رأسه ، وتأتى أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم ، وتأتى القرود فتقعد على بعد منه . ثم يكلمها أحد القرود الأربعة ، فتنصرف القرود كلها ، ثم يأتى كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك ، فيأكل القرد

الرئيس وأولاده والقرود الأربعة . وكذلك علم ابن بطوطة أن لهذه القرود نظاماً تأديبياً ، إذ تتولى القرود الأربعة ضرب بعض القرود المتمردة ونتف وبرها .

الياقوت

واسترعى نظر ابن بطوطة فى جزيرة سيلان كذلك كثرة أحجار الياقوت . وذكر أنه يستخرج من أرض الجزيرة ، إذ تحفر الأرض ، ويوجد تحتها أحجار بيضاء مشعبة ، يتكون الياقوت فى جوفها . فتقطع هذه الأحجار البيضاء وتعطى لعمال مخصوصين يتولون شقها وإخراج أحجار الياقوت منها ، وهو مختلف الألوان ، منها الأصفر والأزرق .

ويتحلى جميع نساء سيلان بقلائد من الياقوت الملون ، ويجعلنه فى أيديهن كذلك وأرجلهن عوضاً عن الأساور والخلاخيل . ويحلى جوارى السلطان رؤوسهن بشبكة من الياقوت . وكان لسلطان الجزيرة فيل أبيض يستخدمه فى تنقلاته الرسمية ، ويحلى جبهة هذا الفيل فى هذه المناسبات بسبعة أحجار من الياقوت ، كل حجر منها فى حجم بيضة الدجاجة . وشاهد ابن بطوطة كذلك أحجاراً من الياقوت فى حجم الكف ، موضوعة فى خزائن السلطان .

وبعد أن أتم ابن بطوطة مشاهداته فى جزيرة سيلان أخذ يطوف بالجزر والأراضى المحيطة بها ، وقد أصابه فى تلك الأثناء مرض الحمى ، وعبر عن مشاعره وكيفية معالجته لهذا المرض قائلا : « ثم أصابتنى الحمى القاتلة ، فظننت أنها القاضية ، وألهمنى الله التمر الهندى ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه وجعلته فى الماء ، ثم شربته ، فأسهلنى ثلاثة أيام وعافانى الله من مرضى . »

ولم تقف المصاعب التى لاقاها ابن بطوطة حينئذ على إصابته بالحمى فحسب ، وإنما تعرض لإغارات القراصنة كذلك فى أثناء تجواله بحراً . إذ خرج على السفينة التى كانت تقله إثنا عشر مركباً من مراكب القراصنة ، وسلبوا جميع ما بالسفينة . ونال ابن بطوطة من الخسائر الشىء الكثير . إذ روى أنهم « أخذوا جميع ما عندى مما كنت أدخره للشدائد ، وأخذوا الجواهر واليواقيت التى أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابى التى كانت عندى . . . ولم يتركوا لى إلا السراويل .. »

وقد انتهت متاعب هذا الشطر من رحلة ابن بطوطة بوصوله جزيرة جاوه ، حيث شاهد من مفاتنها الطبيعية ومنتجاتها النباتية ما أنساه الصعاب التى قاسى منها الشىء الكثير . ومن جاوة رحل ابن بطوطة إلى بلاد الصين ، آخر بلاد العالم الإسلامى فى الشرق .

١٢
بلاد الشمس المشرقة
أرض الصين

اطلبوا العلم ولو فى الصين

كان ابن بطوطة يكرر ما روى عن الرسول الكريم اطلبوا العلم ولو فى الصين ، وهو فى طريقه إلى هذه البلاد . ولم يراوده خوف أو رهبة كلما اقتربت السفينة من شواطئ الصين، فقد تذكر ترحيب أهالى الصين بالمسلمين ، ولا سيما التجار منهم الذين كانوا أول من وصلوهم بالدين الإسلامى ودولته .

وقد وفد أولئك التجار المسلمون على الصين فى عهد دولة تانج التى حكمت الصين من ٦١٨ إلى ٩٠٧ م . وتناقل أهل الصين عن أولئك التجار أنهم يعبدون الله ، وليس لهم فى معابدهم تمثال ولا صنم ولا صورة ، وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، ويعتبرون الذبائح التى لا يذبحونها بأنفسهم محرمة عليهم . وقد حصل أولئك القوم من السلطان على إذن بالإقامة فى ميناء كانتون وبنوا لهم دوراً جميلة تختلف عن مبانى أهل الصين .

وسرعان ما أصبح أعضاء الجالية الإسلامية أغنى الناس فى الصين ، وكثر الوافدون عليهم من بنى دينهم ، واستقر آخرون منهم فى ميناء خانفو جنوب مدينة شنغهاى الحالية . وحرصت السلطات الصينية على منح المسلمين بها امتيازات كثيرة لما لهم من أثر كبير فى اقتصاديات البلاد . فكان لهم حق اتخاذ قاض مسلم من بينهم ، يحكم فى المشاكل التى يتعرضون لها ، ويؤمهم فى الصلاة . وكذلك حصلوا على جوازات تبيح لهم تبادل التجارة مع أهل الصين داخل البلاد .

وتابع التجار المسلمون نشاطهم حتى وصلوا إلى كوريا ، وكان لهم نشاط واسع ، وتدخلوا فى الشئون السياسية لهذه البلاد . وساعد على هذا التدخل السياسى اتصال حكام الصين بخلفاء الدولة الإسلامية ، والاستعانة بهم فى التغلب على مشاكلهم الداخلية . فقد استنجد حاكم الصين سوتسنج سنة ٧٥٦ م بالخليفة المنصور العباسى للدفاع عن عرشه ضد بعض الثوار . فأمده الخليفة بفرقة من الجند الإسلامى ، آثرت البقاء فى الصين بعد انتهاء مهمتها .

وظلت أحوال الصين تزداد قوة باتصالها بالمسلمين حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، قبيل زيارة ابن بطوطة لها بزمن قصير . إذ دخل المغول بلاد الصين ، وتحولوا إلى الدين

الإسلامى ، وفتحوا بذلك الطريق أمام المسلمين من سائر الأجناس للدخول إلى الصين . فاستقر عدد كبير من المسلمين فى مدن الصين الهامة بشكل نهائى ، وغدا لهم كيانهم الخاص . وجاءت زيارة ابن بطوطة إلى الصين وتجوله فى مدنها سجلا حافلا عن حياة المسلمين ، ونشاطهم فى هذه المرحلة المبكرة من اتصالهم بالشرق الأقصى .

الجمارك وعمالها

نزل ابن بطوطة فى ميناء الزيتون ، « وهذه المدينة ليس بها زيتون ، ولكنه اسم وضع عليها . ومرساها من أعظم مراسى الدنيا ، أو هو أعظمها . » وبها نظام دقيق لاستقبال السفن التجارية وتفتيش متاجرها . وكانت العادة المتبعة فى هذا الميناء تسجيل السفن الواردة إليه والصادرة عنه ، فإذا أراد مركب صينى مغادرة الميناء صعد إليه صاحب البحر وكتابه ، وكتبوا من يسافر فيه من الخدام والبحارة ، وحينئذ يباح للسفينة السفر . فإذا عادت إلى الميناء صعد عمال الجمارك مرة أخرى إلى السفينة وقابلوا ما كتبوه أولا بأشخاص الركاب على المركب . فإن فقدوا أحداً من عمال السفينة وبحارتها طلبوا من رئيس المركب أن يأتى بالدليل على غياب ذلك الشخص، سواءبالموت أو الفرار .

وبعد أن يفرغ عمال الجمارك من التحقيق من شخصية البحارة ، يكلفون صاحب المركب أن يملى عليهم أنواع السلع التى استوردها ، ثم تنزل البضائع من المركب ، وإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم صادروا جميع البضائع . وكان هذا النظام القاسى الدقيق سبباً فى ازدهار الأحوال التجارية ببلاد الصين ، وحرص التجار على مراعاة قوانين البلاد التجارية .

وكان للتجار المسلمين نظم خاصة من حيث علاقتهم بعمال الجمارك وطريقة معيشتهم بالصين . فكان يخير التاجر حين وصوله الميناء أن يقيم عند تاجر من المسلمين الصينيين أو فى فندق . فإن أحب النزول عند تاجر معين أحصى عمال الجمارك مال التاجر وبضاعته ، وأخذوا إقراراً من التاجر المستوطن بتسلمه هذه الأموال والإنفاق منها على ضيفه التاجر بالمعروف ، وإذا أراد التاجر السفر دفع له مضيفه ما أخذه من مال . أما إذا أراد التاجر النزول بفندق سلم ماله لصاحب الفندق لينفق عليه منه .

وكانت الإقامة بالفندق تكفل الراحة للتاجر ، فإذا أراد التسرى اشترى له صاحب الفندق جارية ، وأسكنه بجناح خاص فى الفندق ، وأنفق عليهما . والجوارى رخيصات ببلاد الصين ، لأن أهل الصين لا يجدون غضاضة فى الإتجار

بالجوارى والغلمان . وكانت هذه الوسيلة سبباً فى منع انتشار الفساد فى بلاد الصين ، إذ يقولون للتاجر الضيف ، « لا نريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم فى بلادنا .

مدينة الزيتون

شاهد ابن بطوطة كثرة الحدائق بهذه المدينة ، فلكل فرد بها منزل تحيط به حديقة غناء . وكان للمسلمين بها قسم خاص اتجه إليه ابن بطوطة . وهناك لقى شخصاً ممن قابلهم فى أسفاره فى الهند . وقدم هذا الرجل ابن بطوطة إلى السلطات فى مدينة الزيتون ، فأكرموا وفادته وأنزلوه فى منزل حسن . ثم جاء إليه قاضى المسلمين بالمدينة وكبار التجار بها للترحيب به . وذكر ابن بطوطة أن « هؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد الكفار ، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح ، وقالوا جاء من أرض الإسلام ، وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنياً كواحد منهم . »

جولة فى الضواحى

ورغب ابن بطوطة فى مشاهدة ضواحى مدينة الزيتون ومعرفة أحوال الناس بها وطرق معيشتهم . فبعث معه حاكم الزيتون جماعة من أصحابه إلى منطقة « صين كلان » . وتنقل

ابن بطوطة وصحبه متخذين الطريق المائى الذى يربط مدينة الزيتون بداخل البلاد . وذكر أن المراكب التى تسير فى هذا النهر تدفع بالمجاذيف ، ويجذف الجذافون قياماً وهم فى وسط المركب ، على حين يجلس الركاب فى مقدم المركب ومؤخرته . وكان يظلل المركب بثياب تصنع من نبات ببلاد الصين أشبه بالكتان .

واستغرق ابن بَطوطة فى جولته سبعة وعشرين يوماً ، وفى كل يوم يرسو المركب عند الزوال بقرية من القرى ليشترى ركابها ما يحتاجون إليه ، وكذلك يفعلون حين يأتى المساء . ولاحظ ابن بطوطة من هذه الرحلة أنّ بلاد الصين من أكثر البلاد أمناً ، وأحسنها حالا للمسافرين . وأن الإنسان يسافر منفرداً ومعه الأموال الطائلة دون أن يخشى سوءاً . ذلك أن أهل الصين اتخذوا لهم فى كل مرحلة من مراحل الطريق فندقاً ، عليه حاكم يسكن به ومعه جماعة من الفرسان والرجال . وبعد العشاء يأتى الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه ، ويدون أسماء جميع من يبيت به من المسافرين ، ثم يقفل باب الفندق عليهم .

وحين يأتى الصباح يعود الحاكم ومعه كاتبه إلى الفندق ، وينادى كل إنسان باسمه ، ثم يبعث مع المسافرين من يوصلهم إلى المرحلة الثانية ، ويأتيه الرسول بتقرير من حاكم الفندق التالى

يفيد أن جميع المسافرين قد وصلوا ، وهكذا على طول الطريق .
وزودت هذه الفنادق بجميع ما يحتاج إليه المسافر من الطعام وخصوصاً الأوز والدجاج . ودهش ابن بطوطة من ضخامة دجاج الصين ، وذكر أن ديوكها كبيرة جداً . وقد اشترى ابن بطوطة دجاجة لم يستطع أن يطبخها فى وعاء واحد ، وإنما جعلها فى إناءين . وروى أن الديك فى حجم النعامة ، على حين أن الأوز صغير الحجم .

أحوال أهل الصين

ولاحظ ابن بطوطة من تجواله فى هذه الرحلة أن معظم أهل الصين لا يدينون بالإسلام ، وإنما يعبدون الأصنام ، ويحرقون موتاهم كما يفعل الهنود . ولكن شاهد مع ذلك أن فى كل مدينة من مدن الصين حياً خاصاً بالمسلمين ، ينفردون بسكناهم به ، ولهم فيه المساجد لإقامة صلاة الجمعة وهم معظمون محترمون ، ولهم فى كل بلد شيخ يدعى شيخ الإسلام ، يرجع إليه المسلمون فى شتى شئونهم ، فضلا عن أن لهم قاضياً خاصاً يفصل بينهم .
أما سائر سكان الصين من الوثنيين فيأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها فى أسواقهم ، ولاحظ ابن بطوطة أنهم أهل رفاهية وسعة عيش ، لكنهم لا يهتمون بملبس أو مطعم . فترى

التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة . ولكل واحد من أهل الصين عكاز يعتمد عليه فى المشى ويسمونه الرجل الثالثة ، والحرير عندهم كثير جداً لأن دود القز تتعلق بالثمار وتأكل منها دون أن تحتاج إلى كثير مؤنة . وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحريرة . وكان من عادة التجار سبك ما عندهم من الذهب والفضة قطعاً ، تزن الواحدة منها قنطاراً ، ومن كان له خمس قطع جعل فى إصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين .

أوراق النقد

على أن ابن بطوطة أشار إلى استعمال أهل الصين لأوراق النقد بدلا من العملة الفضية أو الذهبية ، مما يدل على علو كعبهم فى ميدان الاقتصاد والمال فى هذه المرحلة المبكرة . فذكر فى مشاهداته أن أهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يُتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، (ورق) ، كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرون منها « بالشت » وهى تعادل الدينار .

وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار السكة فأخذ عوضاً عنها أوراقاً جدداً ، ولا يدفع على ذلك أجراً ، لأن الذين يتولون هذا العمل لهم المرتبات من قبل السلطان . ويشرف على شئون هذا الديوان رجل من كبار رجال الدولة ، حتى أن الإنسان إذا ذهب إلى السوق ومعه درهم فضة أو دينار يريد شراء شىء بها لا يستطيع حتى يستبدل هذه النقود بأوراق « البالشت » .

الفخار الصينى

وتحدث ابن بطوطة عن الفخار الصينى الذى شاع استعمال الأوانى المصنوعة منه فى شتى أنحاء العالم . وشاهد طريقة صنعه بمدينة الزيتون ، إذ يحمل من جبال بالقرب منها نوع من التراب أشبه بالطفل ، ثم يقطع قطعاً على قدر قطع الفحم ، ويشعل فيه النار ، فيتقد كالفحم ، ويعطى حرارة أشد منه . وإذا ما صار رماداً عجنوه بالماء وييبسوه ، ثم يخمرونه . فالجيد منه ما خمر شهراً كاملا ، والنوع الأقل ما خمر عشرة أيام . وكانت الأوانى المصنوعة منه رخيصة جداً ببلاد الصين ، وتنقل منها إلى الهند وسائر الأقاليم بالشرق .

التصوير عند الصينيين

على أن أشد ما أعجبَ به ابن بطوطة هو براعة أهل الصين فى التصوير ، الذى لا يجاريهم « أحد فى إحكامه . . . فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً » ودون ملاحظاته عن التصوير قائلا : « ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ، ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة فى الأسواق . . . ولقد دخلت العاصمة ، فمررت على سوق النقاشين ، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين ، فلما عدت من القصر عشياً مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتى وصورة أصحابى منقوشة فى كاغد قد ألصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطىء شيئاً من شبهه . وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون إلينا ، ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك ، وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم ، وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد وبحث عنه ، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ . »

التأمين الاجتماعى

وأشاد ابن بطوطة بتقدم أهل الصين فى تأمين سبل العيش لغير القادرين منهم . فما شاهده فى إحدى كنائس مدينة من مدن الصين « بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ، ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة ، وكذلك فى داخلها المارستان للمرضى ، والمطبخة لطبخ الأغذية ، وفيها الأطباء والخدام . . . وكذلك الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب ، لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة ، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا حال لهم . »

الحفاوة الرسمية بابن بطوطة

وبينما ابن بطوطة يتجول فى بعض مدن الصين مشاهداً نظمها وأحوالها جاءته دعوة من « القان » ، وهو ملك الصين لزيارته فى عاصمة مملكته . فعاد ابن بطوطة إلى مدينة الزيتون وأخذ يستعد للسفر . وقد أبدى رغبته فى السفر عن طريق النهر ، فجهزت له السلطات مركباً حسناً من المراكب المعدة لركوب الأمراء ، على حين أمده التجار وغيرهم من كبار الرجال بالمؤن وسائر ما يحتاجه من مطالب . وبدأ ابن بطوطة

بعد ذلك رحلته ملاقياً من السلطات الرسمية فى القرى والمدن التى اجتازها كل حفاوة وتكريم وتسهيلات فى المأكل والمشرب .

كل غريب للغريب نسيب

وبعدسفر عشرة أيام وصل ابن بطوطة إلى مدينة قَنْجَنْفُو ، وهناك خرج الناس لاستقباله وعلى رأسهم كبير الفقهاء وأعيان التجار ، ومعهم الأعلام والطبول . ونزل ابن بطوطة فى دار شخص يدعى « ظهير الدين القرلانى » . وتعرف فى أثناء هذه الفترة بأحد أبناء قومه من بلاد المغرب ، وكان قد وفد على الصين واشتهر أمره بها ، ويدعى قوام الدين السبتى نسبة إلى مدينة سبته بأرض المغرب . وروى ابن بطوطة كيف تعرف على مواطنه قائلا : « وبينما أنا يوماً فى دار ظهير الدين القرلانى إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم . فاستؤذن له على ، وقالوا مولانا قوام الدين السبتى . فعجبت من اسمه ، ودخل إلى ، فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنح لى أنى أعرفه ، فأطلت النظر إليه . فقال : أراك تنظر إلى نظر من يعرفنى ، فقلت له : من أى البلاد أنت ؟ فقال من سبتة . فقلت له وأنا من طنجة ، فجدد السلام على وبكى حتى بكيت لبكائه . »

فى الطريق إلى عاصمة الصين

استأنف ابن بطوطة رحلته من مدينة قنجنفو ، ودخل مدينة تدعى الْخَنْسَا بعد مسيرة سبعة عشر يوماً . واشتهرت بهذه المدينة جالية مصرية أكرمت وفادة ابن بطوطة ، وروى أنه نزل هناك بدار أولاد عثمان بن عفان المصرى . وكان أحد التجار الكبار ، استحسن هذه المدينة فاستوطنها . واشتهر أبناؤه بالعطف على الفقراء وإعانة المحتاجين ، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة . وكان عدد الجالية الإسلامية كبيراً بهذه المدينة ، احتفت بابن بطوطة احتفاء بالغاً حتى أنه كان كل يوم طيلة الخمسة عشر يوماً التى قضاها فى المدينة يتلقى دعوة جديدة .

مشعوذ صينى

وفى مدينة الخنسا استدعى أميرها ابن بطوطة ، وأحضر أحد المشعوذين وقال له « أرنا من عجائبك . فأخذ كرة خشب لها ثقب ، فيها سيور طوال ، فرمى بها إلى الهواء . فارتفعت حتى غابت عن الأبصار . . . فلما لم يبق من السير فى يده إلا يسير أمر متعلماً له فتعلق به ، وصعد فى الهواء إلى أن غاب

عن أبصارنا ، فدعاه فلم يجبه ثلاثاً ، فأخذ سكيناً بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضاً ، ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض ، ثم رمى برجله ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم برأسه ، ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم . فقبل الأرض بين يدى الأمير وكلمه بالصينى ، وأمر له الأمير بشيء ، ثم إنه أخذ أعضاء الصبي ، فألصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سوياً . »

وقد عجب ابن بطوطة من هذا المنظر حتى أنه أصيب بخفقان فى القلب ، فتناول دواء خاصاً أعاده إلى رشده . ولما استفهم ابن بطوطة عما شاهده ، قيل له إن شيئاً من الحادث نفسه لم يتم ، وإنما هى مهارة مشعوذى أهل الصين .

العاصمة خانبالق

وأخيراً بلغ ابن بطوطة العاصمة خانبالق ، وأعجب بعظمتها وكثرة بساتينها . ولكن استرعى نظره قصر السلطان فكان يقع فى وسط المدينة ، وله سبعة أبواب ، يجلس بالباب الأول أمير البوابين ، ومعه حفاظ القصر وعددهم خمسمائة رجل . وعند الباب الثانى يجلس الرماة ، وبالباب الثالث أصحاب الرماح ، وبالرابع أصحاب السيوف . أما الباب الخامس فيؤدى إلى ديوان الوزارة .

وهذا الديوان عبارة عن سقائف كثيرة . يجلس الوزير فى السقيفة الكبرى وأمامه دواة عظيمة من الذهب . وبالقرب من الوزير يجلس كاتب الرسائل ، وصاحب البريد ، وكذلك الشخص المختص بالنظر فى المظالم . ويسمى المكان الأخير بديوان الغوث ، ويجلس فيه أحد الكبراء ومعه الفقهاء والكتاب ، فمن له مظلمة التجأ إليه .

رحيل ابن بطوطة عن الصين

على أن ابن بطوطة لم يهنأ عندما دخل عاصمة الصين . إذ انتشرت بها الفتن والقلاقل لخروج بعض أقرباء السلطان عن الطاعة ، وتطلعهم إلى الملك . وانتهت الفتن بقتل السلطان أو « القان » . فاضطر ابن بطوطة إلى مغادرة العاصمة على عجل ، وعاد إلى ميناء الزيتون ، حيث وجد سفناً أقلته إلى الهند .

١٣
الحنين إلى الوطن

الأهل والولد

غادر ابن بطوطة الشرق الأقصى مسرعاً قاصداً العودة إلى مسقط رأسه ببلاد المغرب . واختار طريق الشام ومصر ، حيث عمد إلى استطلاع أخبار أهله من بعض أصدقائه بتلك البلاد . ودخل دمشق بعد أن قضى عشرين سنة كاملة فى بلاد الشرق الأقصى . وكان ابن بطوطة قد ترك فى هذه المدينة زوجة حاملا ، عرف فيما بعد فى أثناء تجواله فى الهند أنها أنجبت ولداً . فجهد منذ وصل دمشق فى تقصى أخبار زوجته وابنه .

علم ابن بطوطة من صديقه نور الدين السخاوى إمام المالكية أن ابنه توفى منذ اثنتى عشرة سنة ، ثم دله على فقيه من أهل طنجة مقيم بدمشق يعرف أخبار والديه . فذهب إليه ابن بطوطة ، وعرف منه أن والده توفى منذ خمسة عشرة سنة ، ولكن والدته لا تزال على قيد الحياة .

أقام ابن بطوطة بعد حصوله على هذه الأخبار فترة قصيرة

بالشام يدرس أحوالها وما طرأ عليها من جديد ، إشباعاً لغريزة حب الاستطلاع التى لم تفارقه قط . غير أن وباء الطاعون كان قد تفشى إذ ذاك بالشام ، فآثر الذهاب سريعاً إلى مصر ، وإن كان الوباء قد امتد إليها أيضاً . وبلغ عدد الموتى فى المدن التى مر عليها ابن بطوطة عدداً كبيراً ، وكان الوباء يشتد يوماً بعد يوم حتى إنه لم يخل يوم واحد لا يلقى فيه أناس كثيرون حتفهم .

حج وحنين

دخل ابن بطوطة القاهرة وكان السلطان فى ذلك الوقت الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، ولكنه آثر أن ينتهز سهولة الطرية من مصر إلى الحجاز ، وحج إلى البيت الحرام ، ثم عاد إلى القاهرة حيث سمع بأبى عنان سلطان فاس ، وما اشتهر به من حب للعدل والإنصاف ، والعمل على الاهتمام بأحوال رعاياه .

وكان لهذه الأخبار أثر كبير فى نفس ابن بطوطة ، فعبر عما ساوره من شوق قائلا : « قصدت القدوم على حضرته العلية (يعنى أبا عنان) ، مع ما شقنى من تذكار الأوطان ، والحنين إلى الأهل والخلان ، والمحبة إلى بلادى التى لها الفضل عندى على البلدان » ..

أبحر ابن بطوطة من مصر إلى تونس فى صفر سنة ٧٥٠ هـ — مايو ١٣٤٩ م . وكانت الرحلة إلى وطنه شاقة متعبة ، إذ كثرت سفن القراصنة فى البحر ، وتعرض ابن بطوطة لكثير من المشاق . وبدأت هذه الصعاب عندما سافر من تونس فى مركب من مراكب القطلانيين . فقد وصلت السفينة إلى جزيرة سردانية ، وهناك علم أن أهل هذه الجزيرة يحترفون القرصنة ، ويعملون على سلب السفن بعد مغادرتها الجزيرة . واستولى الخوف على ابن بطوطة ، حتى إنه نذر صيام شهرين متتابعين إذا نجا من شرور أهل سردنية .

على أن ابن بطوطة أتم رحلته بسلام ، ودخل أخيراً مدينة فاس فى شعبان سنة ٧٥٠ هـ ، بعد أن عدل عن الذهاب إلى مسقط رأسه لعلمه بوفاة والدته .

النعرة القومية

أطنب ابن بطوطة فى ذكر مناقب سلطان فاس ، حيث لقى منه كل عطف وكرم . وخلد له هذا العطف فى مديحه وثنائه ، ورفعه إلى درجة تفوق سائر الحكام الذين قابلهم فى أسفاره . فقال إن هيبة السلطان أبى عنان أنسته « هيبة سلطان العراق ، وحسن ملك الهند ؛ وحسن أخلاقه حسن خلق ملك

اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك ، وحلمه حلم ملك الروم ، وديانته ديانة ملك تركستان ، وعلمه علم ملك الجاوة . »

وأخذ ابن بطوطة يشيد بعد ذلك ببلاده وما سادها من رخاء وازدهار على عهد السلطان أبى عنان ، واستشهد بقول القائل :

الغرب أحسن أرض ولى دليل عليه
البدر يرقب منه والشمس تسعى إليه

في رعاية السلطان أبى عنان

اتخذ ابن بطوطة حياة السلطان أبى عنان نموذجاً للحياة فى أرض المغرب ، وأشاد بحرص السلطات هناك على حث الناس على التمسك بالفضائل . فكان العدل مستتباً فى دولة السلطان أبى عنان حيث حرص على الجلوس للنظر فى المظالم بنفسه المتعلقة برعاياه ، ولا سيما الفقراء منهم . وكان يخصص يوم الجمعة لهذا النفر البائس ، ويبدأ بفحص شكاوى النساء ، « ومن وصلت نوبتها نودى باسمها ، ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة . فإن كانت متظلمة عجل إنصافها ، أو طالبة إحسان وقع إسعافها » .

وبذل السلطان عناية كبرى لرعاية العلم فى دولته . فكان يعقد مجالس العلم فى كل يوم بعد صلاة الصبح ، ويستدعى

أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة ، ويشترك معهم فى المناقشات العلمية ، ولا سيما فى تفسير القرآن . واسترعى هذا الاهتمام بالعلم نظر ابن بطوطة حتى إنه قال « ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية . فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح . . . ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة . . . حتى رأيت ملازمة مولانا (أبى عنان) أيده الله فى الصلوات كلها » .

زيارة قبر الوالدة

على أن ابن بطوطة ترك بلاط أبى عنان وذهب لزيارة قبر والدته بطنجة . وهناك تجدد عنده الشوق مرة أخرى للترحال والتجوال . فقصد بلاد الأندلس هذه المرة ليشاهد هذه الرقعة من دار الإسلام .

ولكن ابن بطوطة لم يقم بهذه البلاد كثيراً ، فكان المسلمون يعانون أخطر مرحلة فى حياتهم ، وهو انسحابهم أمام المسيحيين من أهل الأندلس ، ومن ثم عاد ابن بطوطة حزيناً إلى طنجة ، تاركاً وراءه هذا القطر العظيم من دار الإسلام .

١٤
فى أحضان السودانين

الأرض البكر

عزم ابن بطوطة بعد عودته من الأندلس على القيام برحلة ثالثة ليزور بلاد المسلمين فى السودان الغربى ، وحاز بذلك قصب السبق فى دراسة أحوال السودانيين وتدوين مشاهداته عنهم قبل أن يفكر أى رحالة آخر فى الذهاب إلى هذه البلاد .

وكان الإسلام قد سبق ابن بطوطة فى الانتشار بين السودانيين ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور . وجاءت رحلة ابن بطوطة وما حفلت به من أخبار عن أحوال السودان دليلا ناصعاً على ما تحلى به السودانيون من خلق رفيع ، وأنهم جديرون بتبوُّؤ مكانة عالية فى مضمار الحضارة العالمية .

انتشر الإسلام بين السودانيين عن طريق بلاد المغرب بعد عبوره الصحراء الكبرى . وساعد بلاد المغرب على الاضطلاع بهذا الدور الهام اتصال قوافل التجارة بينها وبين أرض السودان ، وانتظام المسالك عبر الصحراء الكبرى . وكانت قبائل البربر

سكان المغرب تتميز بصفة خاصة بحماستها الدينية ، وغيرتها على إدخال جيرانها فى حظيرة الإسلام .

وبدأ الإسلام يظهر بجلاء فى أرض السودان الغربى فى عهد يوسف بن تاشفين أحد أمراء دولة المرابطين ببلاد المغرب سنة ١٠٦٢م. فقد أخذ سكان مملكة غانة وسنغاى فى غرب السودان يدخلون فى الدين الإسلامى أفواجاً ، وعلى رأسهم الحكام وأسرهم . فأسلم ملك سنغاى المسمى زاكسى (Za - Kassi) ، بمحض إرادته ، وغدا نموذجاً لإقبال السودانيين على اعتناق الدين الإسلامى .

وجاء انتشار الإسلام بين السودانيين حافزاً على ازدياد العمران ، وظهور مدن جديدة نشأت ذات طابع إسلامى محض منذ بداية تاريخها . فقد تأسست فى القرن الحادى عشر الميلادى ، الذى اقترن عهده بدخول الإسلام السودان ، مدينتان كان لهما أكبر الأثر فى انتشار الدعوة إلى الإسلام فى السودان الغربى وتفهيم الناس أصول هذا الدين الحنيف .

وكانت هاتان المدينتان هما مدينة جنى (Genne) ، ومدينة تمبكتو (Timbuktu) . وقد غدت المدينة الأخيرة مركزاً هاماً لتجارة القوافل مع بلاد المغرب ، ونموذجاً للمدن الإسلامية ببلاد السودان . فلم « تدنسها عبادة الأوثان ، ولا سجد على

أديمها قط لغير الرحمن » وصارت هذه المدينة فيما بعد مركزاً لتعليم الإسلام فى السودان توافد عليها الطلبة وعلماء الدين فى أعداد كثيرة ، مدفوعين إلى ذلك بما يلاقونه هناك من تشجيع .

وقد شاهد ابن بطوطة هذه المدينة ودون تقريراً وافياً عن أحوالها ، ولكن كانت أعظم ولايات السودان على عهده هى ولاية ملىّ (Melle) أومالّى(Malli) .ذلك أن أهلها اشتهروا بالذكاء وحذقهم للصناعات ، كما اشتهروا بالأمانة فى المعاملة . وعرف سكان مالى كذلك بالحرص على نشر الإسلام بين جيرانهم والاهتمام بتلقين تعاليمه .

الرحلة إلى السودان

استأذن ابن بطوطة سلطان فاس فى الخروج لزيارة السودان . وفى أوائل عام ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) خرج على رأس قافلة من التجار قاصداً مدينة إيوالاتن ، أولى مدن السودان الغربى . وبعد رحلة موحشة فى صحراء شاسعة ، ظهرت طلائع مدينة إيوالاتن ، وبدأت مشاهدات ابن بطوطة فى أرض السودان .

البساطة والكرم

عندما دخل ابن بطوطة مدينة إيوالاتن أخذ يدرس أحوال

أهلها ويسجل ما يشاهده بعين الفاحص الخبير . وكان دقيقاً فى ملاحظاته ولا يعرف المبالغة أو الخداع . ومن ثم جاءت زيارته للسودان سجلا صادقاً للمرحلة الأولى من انتشار الإسلام بين السودنيين ، وكيف أنهم كانوا يفهمون الدين الإسلامى ، ويجهلون أصول بعض قواعده من ناحية أخرى .

نزل ابن بطوطة عند رجل فاضل من أهالى المدينة ، وأعجب ببساطة حياتهم ولا سيما كبار حكامها . فكان «الفربا» أو الحاكم يبذل جهده فى حفظ أمتعة التجار ،ويستقبلهم حين وصولهم ، وبعد ذلك يشرف عمدة المدينة أو نائب الحاكم « منشاجو » على راحة الضيوف ، ويدعوهم لضيافته حيث يقدم لهم مشروباً وطنياً من جريش، وعسل ولبن لم يعجب به ابن بطوطة .

وقد أكرم قاضى المدينة وعلماؤها ابن بطوطة ، وأضافوه عندهم . على أن ابن بطوطة أحس بشدة الحر فى مدينة إيوالاتن ، وذكر أن بالمدينة قليلا من شجر النخيل يزرع أهلها فى ظله البطيخ . وقد استرعى نظر ابن بطوطة أن ثياب أهالى المدينة من نسيج مصر ، وأن نساءها جميلات فاتنات ، وأن لهن شأناً كبيراً بالمدينة .

اختلاط الجنسين

أدهش ابن بطوطة كثيراً اختلاط النساء بالرجال فى مدينة إيوالاتن . فذكر « أن رجالهم لا غيرة لديهم ، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله ، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه . . . ونساؤهم لا يحتشمن من الرجال ، ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات . . . والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات ،ويدخل أحدهم داره فيجد إمرأتهومعها صاحبها فلا ينكر ذلك » .

واستغرب ابن بطوطة هذا الاختلاط رغم تمسك أهالى المدينة بالإسلام . فذكر أنه دخل يوماً على القاضى بالمدينة بعد أن أذن له بالدخول ، فوجد عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن . فلما رأى ذلك أراد الرجوع ، ولكن المرأة ضحكت ولم يدركها الخجل ، وقال له القاضى : لم ترجع ؟ إنها صاحبتى ! .

وظلت هذه الظاهرة تؤرق ابن بطوطة ، إذ دخل يوماً على دار صديق له من أهل السودان ممن تردد على بلاد المغرب ، فوجد امرأة جالسة مع رجل . فسأل صديقه عن أمرهما ،

فقال له هذه المرأة زوجتى والرجل صاحبها . فقال له ابن بطوطة : « كيف ترضى بهذا وأنت سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟» فقال له صديقه إن مصاحبة النساء للرجال على خير وحسن طريقة ، وأنهن يختلفن عن نساء المغرب . فعجب ابن بطوطة من رعونة صديقه ، وأعرض عن زيارته .

على أن هذه الظاهرة التى شاهدها ابن بطوطة تدل دلالة واضحة على أن أهل هذه المنطقة من السودان لم تفهم بعد تعاليم الإسلام فهما صحيحاً لقلة الدعاة والمعلمين ، لأنه عندما أخذ ابن بطوطة يسير شرقاً فى أقاليم السودان رأى ازدياد فهم السودانيين لتعاليم الإسلام لكثرة العلماء والمعلمين بها ، ولشدة اتصالهم بمصر والمغرب وبلاد الحجاز كذلك .

جولة فى السودان

غادر ابن بطوطة مدينة إيوالاتن قاصداً مدينة مالى أكبر مدن السودان وأعظمها شأناً . واستأجر دليلا من أهالى إيوالاتن وسافر بمفرده حيث الطريق آمن وأسباب الراحة به مكفولة . وكان الطريق غاصاً بالأشجار تبعث ظلا جميلا ، وفضلا عن ذلك كانت هذه الأشجار تحفظ داخلها مياه الأمطار ، وكأنها بئر يشرب منه الناس . وشاهد ابن بطوطة حائكاً

قد اتخذ لنفسه مأوى داخل إحدى الأشجار بالطريق .

وكان المسافر فى الطريق لا يحمل معه طعاماً أو نقوداً ، وإنما يأخذ قطع الملح وحلى من الزجاج وبعض العطور . فإذا مرّ بقرية من القرى ، خرج إليه النساء ومعهن اللبن والدجاج والدقيق فيشترى منهن المسافر ما يريد مقابل إعطائهن مما يحمل من ملح أو عطور . وكان المسافر يحرص على شراء نبات يسمى « الفوق » ، أشبه بحب الخردل ، يصنع منه الكسو والعصيدة .

ومرّ ابن بطوطة فى طريقه بنهر النيجر وظنه نهر النيل ، وقال إنه ينحدر إلى بلدة زاغة وتنبكتو ثم إلى بلاد النوبة ودنقلة . ولعل ابن بطوطة قد التبس عليه هذا الأمر لاقتراب بحر الغزال أحد فروع النيل من نهر النيجر . ولكن يلتمس لابن بطوطة العذر فى هذا اللبس ، ولا سيما أن منابع النيل الحقيقية لم تكتشف إلا منذ عهد يسير .

وكان ابن بطوطة يرى مظاهر الإسلام الحق كلما سار شرقاً ، فأعجب بأهل زاغة وذكر أنهم قدماء فى الإسلام ، متمسكون بأهداب الدين ، ومقبلون على طلب العلم . والواقع أن هذه المنطقة التى تقع على فرع النيجر الشمالى الغربى مقر مملكة «تكرور» التى كانت أول معقل للإسلام بالسودان فى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وكان لهذه المملكة

اتصال بمصر ، ولا سيما أنها بعثت أبناءها إلى الأزهر للتفقه فى شئون الدين .

وأخيراً وصل ابن بطوطة إلى مدينة مالى حاضرة مملكة السودان المسماة بهذا الاسم ، وكان من عادة أولى الأمر فيها أن يمنعوا الناس من الدخول فيها إلا بإذن منهم . وقد سمح لابن بطوطة بدخول المدينة حيث كان قد استأذن من السلطات بها .

الجاليات الأجنبية تحتفل بابن بطوطة

كان بمدينة مالى جالية كبيرة من أهل المغرب ومصر ، ورئيسها شمس الدين بن النقويش المصرى . وقد اتخذت هذه الجالية لنفسها حياً خاصاً فى المدينة ، فأفرد رجل من أهل المغرب لابن بطوطة داراً ينزل بها . وأخذت الهدايا تتوالى عليه من كل حدب ، ولا سيما من رجال الدين السودانيين . وقد أصاب ابن بطوطة مرض لتناوله وجبة طعام عافتها نفسه ، فتولى أفراد الجالية المصرية تمريضه ، وأعطوه دواء ساعده على الشفاء .

سلطان مالى

حرص ابن بطوطة ــ شأنه فى كل رحلاته ــ على دراسة

أحوال سلطان مدينة مالى ومعرفة طباعه ، لأن تصرفات الحكام مرآه تنعكس عليها شئون البلاد . دخل ابن بطوطة على السلطان فى شهر رمضان وقال له : « إنى سافرت بلاد الدنيا ، ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك منذ أربعة أشهر ولم تضفنى ولا أعطيتنى شيئاً . » فأمر له السلطان بدار ينزل بها ، وخصص له مرتب خاص .

وكانت أحوال مملكة مالى تدل على تقدمها فى الحضارة ، وحرص أهاليها على الاحتفال بالمواسم الدينية الإسلامية . فشاهد ابن بطوطة احتفال سلطان مالى بالأعياد ، ومشاركته شعبه فى مباهجهم . فكان يخرج للصلاة وعلى رأسه غطاء (طيلسان) أسود ومعه الناس وعليهم الثياب البيض الحسان .

وبعد انتهاء الصلاة يجرى احتفال يشهده السلطان . فيجلس على مكان مرتفع وخلفه أربعة من الأمراء يبعدون عنه الذباب ، ثم يأتى النساء عليهن الملابس الحسان ويغنين ، وكذلك يأتى غلمان صغار يلعبن حركات بهلوانية جميلة . وعند نهاية الحفل يغدق عليهم السلطان منحاً مالية .

كارنڤال بالسودان

وكان يعقب هذا الحفل مظهرٌ أشبه بأعياد الكرنفال ،

واتخاذ صور رمزية يتنكر فيها المحتفلون . على أن هذا التنكر فى الأزياء كان يقتصر فى السودان على الشعراء . ففى يوم العيد يدخل الشعراء على السلطان وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش ، لها رأس من الخشب ومنقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ، ويقفون بين يدى السلطان فى هذا المنظر الطريف.

ويأخذ الشعراء بعد ذلك فى إلقاء قصائدهم ، وكانت أشبة بالوعظ ، حيث يذكرون السلطان بما فعله أجداده وأسلافه من أعمال عظيمة ، ويدعونه إلى السير على نهجهم ، والتمسك بتقاليدهم الطيبة . وكان الشعراء يختتمون حفلهم بعادة سودانية قديمة ، ترجع إلى ما قبل اعتناقهم للإسلام . إذ يصعد كبير الشعراء إلى مقر السلطان ويضع رأسه فى حجر السلطان ، ثم على كتفه الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، ويعود إلى مقره .

* * *

وأعجب ابن بطوطة بحرص السودانيين على حضور الصلوات فى ملابس نظيفة ، واهتمامهم بتلقين أبنائهم القرآن الكريم . فقال : « دخلت على القاضى (بمدينة مالى) يوم العيد ، وأولاده مقيدون ، فقلت له ألا تسرحهم ؟ ، فقال لا أفعل ، حتى يحفظوا القرآن . » وأضاف ابن بطوطة مشاهدة أخرى قائلا : « مررت يوماً بشاب حسن الصورة عليه ثياب

فاخرة ، وفى رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معى : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ . ففهم عنى الشاب وضحك ، وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن . »

فرس البحر

غادر ابن بطوطة مدينة مالى قاصداً تمبكتو ، ورافق أحد التجار ليدله على الطريق . وركب ابن بطوطة وصحبه الجمال لأن الخيول غالية الثمن . وقد وصلا إلى شاطئ نهر النيجر واضطرا إلى التريث حتى الليل لعبور النهر لكثرة البعوض . على أن ابن بطوطة شاهد بهذا النهر عندما اقترب من ضفته ست عشرة دابة ضخمة ، وقد ظنها بادئ الأمر فيلة ، ولكن لم يلبث أن رآها تدخل النهر . فسأل رفيقه عن أمرها فأخبره أنها أفراس البحر « وهى أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذناب ورؤوسها كرؤوس الخيل وأرجلها كأرجل الفيلة . » وقد شاهد هذه الأفراس تعوم فى الماء ، وترفع رأسها وتنفخ .

وكانت طريقة صيد هذه الأفراس طريفة ، إذ يخرج الصيادون ومعهم رماح مثقوبة مربوط فيها شرائط متينة . ويضربون الفرس منها ، فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه خرقته ، ثم يشدونه بالحبل حتى يصل إلى الساحل ويذبحونه .

ولحمه يؤكل ، حتى أن عظامه ترى منتشرة على طول الشاطئ .

نيام نيام

وفى أثناء رحلة ابن بطوطة سمع بأخبار نيام نيام آكلى لحوم البشر . وقابل عند المكان الذى اجتاز عنده نهر النيجر رجلا قص عليه شيئاً عن أخبار أولئك القوم . فقال حدث أن قاضياً من البيض دخل فى خدمة سلطان مالى ، وكان يرافقه فى أسفاره . وقد منحه السلطان مبلغاً من المال ، ولكن القاضى اشتكى للسلطان ضياع ماله فى أثناء سفره ببلدة تدعى « ميمه » فطلب السلطان حاكم هذه البلدة ، وهدده بالقتل إن لم يحضر السارق .

وجد الحاكم فى طلب السارق فلم يجده . ودخل على خدم القاضى وهددهم ، فقالت له إحدى الجوارى : ما ضاع من هذا القاضى شىء ، وإنما دفنها بيده فى موضع دلته عليه . فأخرجها الحاكم وبعث بها إلى السلطان . فاشتد به الغضب ونفى القاضى إلى « بلاد الكفار الذين يأكلون بنى آدم » . على أن القاضى أقام هناك أربع سنين عاد بعدها دون أن يصيبه شىء ، إذ أن نيام نيام لا يأكلون لحم البيض متذرعين أنه لم ينضج ، وأن اللحم الأسود عندهم دليل النضج .

وسمع ابن بطوطة كذلك أن جماعة من أولئك السكان آكلى لحوم البشر وفدت على السلطان ومعهم أمير لهم . ومن عادتهم أن يجعلوا فى آذانهم أقراطاً كبيرة ، فتحة القرط منها نصف شبر . وقد أكرمهم السلطان وأعطاهم فى ضيافته خادمة ذبحوها وأكلوها ، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمائها . وقد سألهم بعض الناس عن أطيب ما فى لحم البشر ، فقالوا : الكف والثدى .

ولا شك أن دقة ابن بطوطة أبت إلا أن يذكر أخبار هؤلاء القوم نقلا عما سمعه ، لأنه لم يشاهدهم أو يذهب إلى بلادهم .

المصريون فى السودان

وأخيراً وصل ابن بطوطة إلى مدينة تمبكتو ، وشاهد أهاليها يضعون اللثام على أفواههم . ولكنه شاهد آثار اتصال المصريين الوثيق بالسودان . وكلما اقترب من السودان الشرقى رأى ازدياد اتصال السودانيين بمصر ولا سيما فى النواحى التجارية . وذكر قصة تدل دلالة واضحة على الظاهرة السالفة . إذ حج سلطان تمبكتو المدعو منسى موسى مرة وعاد إلى مصر ونزل عند أحد التجار المصريين الساكنين بالقرب من بركة الحبش بالقاهرة ، ويدعى سراج الدين .

وقد احتاج السلطان وأمراؤه بعض الأموال فأمدهم بها هذا التاجر المصرى ، وأوفد معهم أحد وكلائه ليتسلم هذا المال بالسودان . ولكن وكيل التاجر المصرى عرج على مدينة مالى وأقام بها . فذهب سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله واصطحب معه ابنه إلى السودان . فلما وصلا تمبكتو استضافه شخص يدعى أبا إسحق الساحلى ، وتصادف أن توفى التاجر المصرى فى تلك الليلة . فتكلم الناس فى ذلك واتّهموه أنه دس للتاجر سماً . ولكن ابن التاجر المصري قضى على هذه التّهمة وأثبت لهم أنه أكل مع أبيه الليلة الماضية من نفس الطعام ولم يمت ، وقضى بذلك على أية تهمة قد تفصم عرى الوحدة بين المصريين والسودانيين . ثم حصل ابن التاجر المصرى على مال أبيه وعاد إلى مصر . وشاهد ابن بطوطة قبر هذا التاجر المدعو سراج الدين بن الكويك المصرى بمدينة تمبكتو .

كرم السودانيين

ولما غادر ابن بطوطة مدينة تمبكتو لقى فى طريقه كل إكرام من السودانيين ، مما دل على أنه كلما توغل شرقاً ازدادت أخلاق الأهالى حسناً ورقة . وقد تنقل ابن بطوطة عن طريق النهر راكباً قارباً صغيراً منحوتاً من خشبة واحدة . وكان

ابن بطوطة وصحبه ينزلون كل ليلة بالقرى التى يمرون بها ، ويشترون ما يحتاجونه من طعام وسمن ، بطريق المقايضة بالعطور وحلى الزجاج .

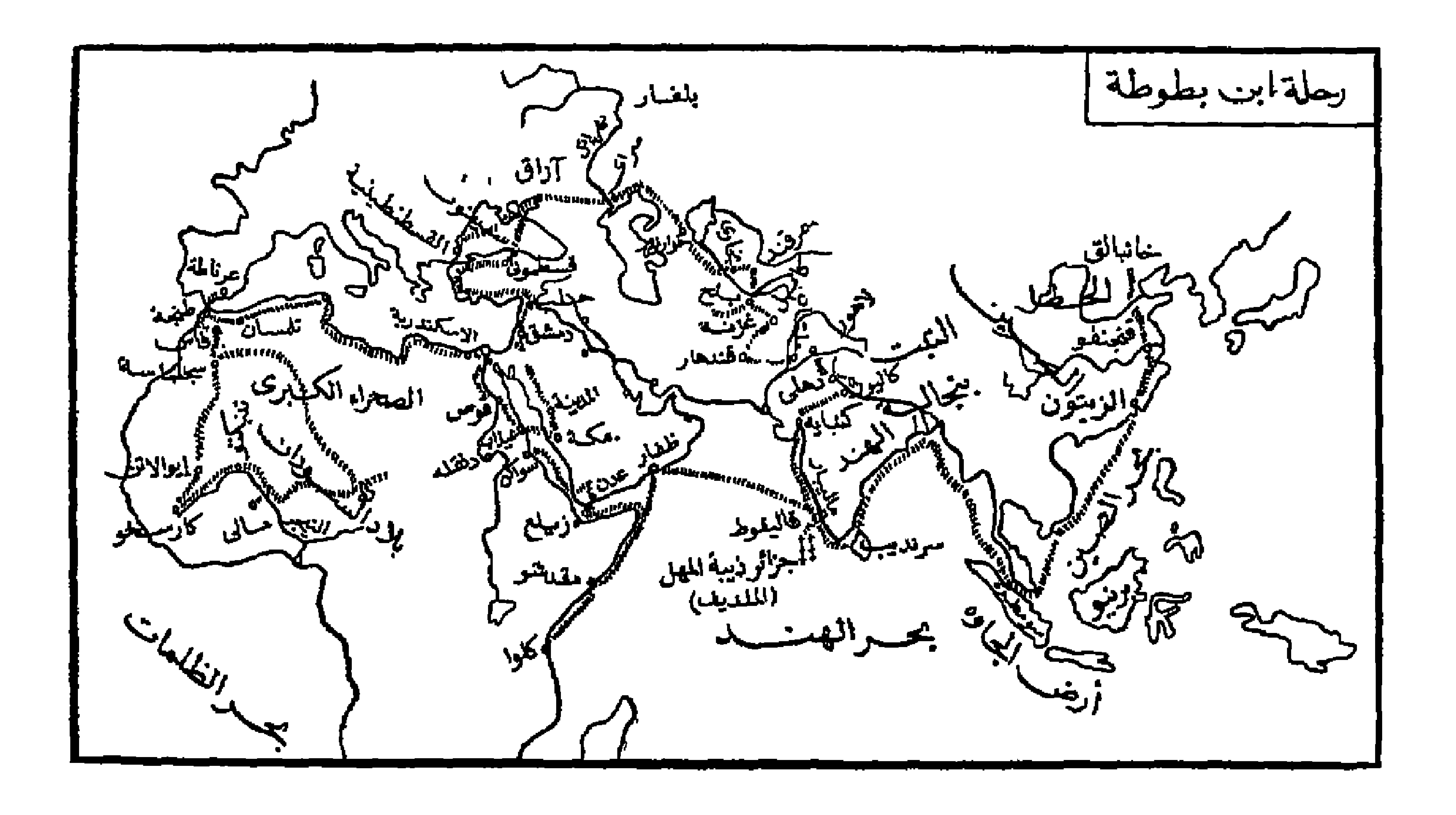
وقد مر ابن بطوطة بإحدى القرى واحتاج إلى شيء من الذرة ، فذهب إلى عمدة القرية وكتب لوحاً يطلب منه ذرة . ولما عرف العمدة طلب ابن بطوطة أخذه من يده وأدخله قاعة كبيرة بها كثير من السلاح ، وأراه كتاباً لابن الجوزى أحد مؤرخى المسلمين . وقد قرأ فيه ابن بطوطة بعض الشيء ، ثم قدم له مشروباً يسمى « الدقنو » ، وهو عبارة عن ماء فيه جريش الذرة المخلوط بالعسل واللبن . وهذا الشراب يستعاض به عن الماء الذى يضر شربه وحده بالجسم .

نهاية المطاف

واصل ابن بطوطة تجواله فى السودان حتى بلغ مدينة تدعى «تَكَدَّا» ، وهناك جاءه أمر سلطان فاس بالعودة . فاشترى جملين وبعض المؤن ، واختار فى عودته طريقاً قصيراً مقفراً ، ولكن يتوافر به الماء ، مما يساعد على السفر .

خرج ابن بطوطة من تكدا يوم الخميس الحادى عشر من شعبان سنة ٧٥٤ هـ فى قافلة كبيرة .

وكان الطريق متعباً بسبب وجود بعض قطاع الطرق به . ولكن وصلت القافلة أخيراً مدينة سجلماسة فى منتصف ذى القعدة من سنة ٧٥٥هـ ، ومن هناك قصد إلى فاس حيث تشرف بمقابلة السلطان ، ومكث فى جواره حيث سجل رحلته التى حوت الكثير من الأخبار عن البلاد التى وصل إليها الإسلام .


رحلة ابن بطوطة
بلغار
آزاق
القسطنطينية
غرناطة
طنجة
تلمسان
سجلماسة
الصحراء الكبرى
إيوالاتن
مالى
كارسخو
الإسكندرية
دمشق
المدينة
مكة
قوص
دنقله
سواكن
ظفار
عدن
زيلع
مقدشو
كلوا
بحر الظلمات
سمرقند
بخارى
غزنة
قندهار
التبت
دهلى
بنجالة
كنباية
الهند
قاليقوط
سرنديب
الجزائر ذيبة المهل
(الملديف)
بحر الهند
أرض الجاوة
الزيتون
خانبالق
الخطا
بحر الصين

فهرس

مجموعة سيرة الرسول

مجموعة جديدة تضمنت حياة الرسول الكريم ، وجمعت فيها الحقائق التى يجب أن يعرفها كل مسلم حتى يكون على علم بأهم التطورات المختلفة التى لابست حياة النبي العظيم ويتبين ما كان له من أثر فى العالم كله : قديمه وحديثه . وفى كل حادثة وردت مواضع للعظة والاعتبار ، ودلائل على أن حياة محمد كانت حياة مثالية كريمة على الله والناس وتصور لنا البذل والتضحية فى أسمى الصور وأرقى المعانى .

١ — المولد
٢ — النشأة
٣ — الوحى
٤ — فجر الدعوة
٥ — مشرق الدعوة
٦ — سحاب وضباب
٧ — نور وضياء
٨ — مع القبائل
٩ — الهجرة
١٠ — غزوة بدر
١١ — غزوة أحد
١٢ — غزوة الأحزاب
١٣ — فتح مكة
١٤ — الوفاة

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف



روضة الطفل

١ أرنبو والكنز
٢ كتكت المدهش
٣ عيد ميلاد فلة
٤ فرفر والجرس
٥ ذيل الفأر
٦ البطة السوداء
٧ انتصار فيروزة
٨ حسن والذئب
٩ حبة القمح
١٠ زحلف الشجاع
١١ ذكاء سمسمة

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد الطفل فيها قصصاً مفيدة مزينة بالصور المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصدرها

دار المعارف


دار المعارف
تقدم
للأولاد في جميع البلاد
سندباد
المجلة الأولى للأولاد في الشرق العربي ، بل المشروع الأول من نوعه في البلاد العربية .
يقبل عليها الأولاد بشغف ولذة لما فيها من متعة وتسلية وفائدة .
لم تحز رضا الأبناء وحدهم ، بل رضي عنها الآباء والأمهات ، وشجعها المدرسون ورجال التربية والتعليم .
فريدة في جمال اخراجها بالالوان الجذابة ، وصورها المبتكرة وعباراتها الشائقة . فهي متعة للعين والقلب والفكر .
السنة الثانية مجلدان : ثمن كل مجلد منهما ٦٠ قرشا